بسم الله الرحمن الرحيم

قدمنا الجزء الأول من قراءات في أدب العربية ، وبعون المولى نقدم الجزء الثانى آملين أن يلقى قبولاً لدى قراء العربية ، وأن يوفقنا لإعلاء راية لغتنا ، والنهوض بها .

المؤلفان

من شعر المدائح النبوية

تعد المدائح النبوية لونا من الشعر يتميز بالأصالة والعمق، حيث يركز فيه الشعراء على مناقب الرسول الأكرم، وصفاته، وصور من حياته المليئة بالدروس والعبر، وهذه القصيدة التى نضعها بين يديك للشاعر الأديب لسان الدين بن الخطيب، هى واحدة من قصائد كثيرة قالها الشاعر فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قالها بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله (ﷺ)، وأصل لسان الدين بن الخطيب من لوشة، على مرحلة من غرناطة فى الشمال من البسيط الذى ساحتها المسمى بالمرج، وعلى وادى شنجيل - ويقال سنيل- المخترق فى ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلك معدود فى وزرائها، وانتقل أبوه عبدالله إلى غرناطة واستخدم لملوك بنى الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام[(١)] والقصيدة التى نسوقها إليك من كتابة نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب[(٢)].

وقد ترك لنا ابن الخطيب تراثا ضخما منوعا من النظم الفائق، ما بين قصائد سياسة معظمها نداءات مؤثرة لإنجاد الأندلس، وما بين مدائح وهجاء، ورثاء، وتهانٍ، وزهد، ومن أشهر ما انتهى إلينا من تراثه الشعرى، ديوانه المسمى "الصيب والجهام والماضى والكهام" وتوجد منه نسخة خطية بخزانة

---

(١) نفخ الطيب: ج٥ / ص٨ ، دار صادر، بيروت سنة ١٩٦٨.

(٢) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب. ص ٣٨٢ وما بعدها نشر وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادى، دار الشئون الثقافية، بغداد.

جامع القرويين بفاس بالمغرب، وكذلك كتابه "جيش التوشيح" جمع فيه مختارات من موشحات أئمة التوشيح بالأندلس.

وقد قويت المدائح النبوية فى الأندلس فى الأعصر المتأخرة وذلك فى ظروف التمزق الذى عاشتة الأندلس بسبب انصراف الخلفاء والأمراء إلى ملذاتهم، مما دفع الشعراء إلى حث الناس على الجهاد من أجل الاسلام، وكان سبيلهم إلى ذلك التأسى بالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وبآل البيت.

وكل هذه المعانى ستجدها موجودة فى هذه القصيدة.

النص

أصغى إلى الوجد لما جد عاتبه ... صب له شغل عمن يعاتبه
لم يعط للصبر من بعد الفراق يدا ... فضل من ظل إرشادا يخاطبه
لولا النوى لم يبت حيران مكتئبا ... يغالب الوجد كتما وهو غالبه
يستودع الليل أسرار الغرام وما ... تمليه أشجانه فالدمع كاتبه
لله عصر بشرقى الحمى سمحت ... بالوصل أوقاته لو عاد ذاهبه
يا جيرة أودعوا إذ ودعوا حرقا ... يصلى بها من صميم القلب ذائبه
يا هل ترى تجمع الأيام فرقتنا ... كعهدنا أو يرد القلب سالبه
ويا أهيل ودادى والنوى قذف ... والقرب قد أبهمت دونى مذاهبه
هل ناقض العهد بعد البعد حافظه ... وصادع الشمل يوم الشعب شاعبه
ويا ربوع الحمى لازلت ناعمة ... يبكى عهودك مضنى الجسم شاحبه
ويا من لقلب مع الأهواء منعطف ... فى كل أوب له شوق يجاذبه
يسموا إلى طلب الباقى بهمته ... والنفس بالميل للفانى تطالبه
وفتنة المرء بالمألوف معضلة ... والأنس بالإلف نحو الإلف جاذبه
أبكى لعهد الصبا والشيب يضحك بى ... يا للرجال سبت جدى ملاعبه
ولن ترى كالهوى أشجاه سالفه ... ولا كوعد المنى أحلاه كاذبه
وهمة المرء تغليه وترخصه ... من عز نفسا لقد عزت مطالبه
ما هان كسب المعالى أو تناولها ... هان فى ذاك ما يلقاه طالبه
لولا سرى الفلك السامى لما ظهرت ... آثاره ولما لاحت كواكبه
فى ذمة الله ركب للعلا ركبوا ... ظهر السرى فأجابتهم نجائبه

يرمون عَرْضَ الفَلا بالسير عن عُرُضٍ — طَيَّ السِّجِلِّ إذا ما جد كاتبُه

كأنهم في فؤادِ الليلِ سِرُّ هوى — لولا الضِّرامُ لما خفَّتْ جوانبُه

شَدّوا على لَهَبِ الرَّمْضاءِ وطْأتَهم — فغاص في لُجَّةِ الظَّلْماء راسبُه

وكَلَّفوا الليلَ من طولِ السُّرى شَطَطا — فخلفوه وقد شابت ذوائبُه

حتى إذا أبصر الأعلام ماثلة — بجانب الحَرَمِ المَحْمِيِّ جانبُه

بحيث يأمن مَنْ مَوْلاه خائفة — من ذنبه وينال القَصْدَ راغبُه

فيها وفي طيبةَ الغراء لي أمل — يصاحبُ القلبَ منه ما يصاحبُه

لم أنس لا أنس أياما بظلهما — سقى ثراه عميمَ الغيثِ ساكبُه

شوقي إليها وإن شط المزار بها — شوق المقيم وقد سارت حبائبه

إن ردها الدهر يوما بعد ما عبثت — في الشمل منا يداه لا نعاتبه

معاهدٌ شَرُفَتْ بالمصطفى فلها — من فضله شرف تعلو مراتبه

محمد المجتبى الهادي الشفيع إلى — رب العباد أمين الوحي عاقبُه

أَوْفَى الوَرَى ذمما، أسماهم هِمَما — أعلاهم كرما، جَلَّتْ مناقبُه

هو المكمل في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ — زكت حُلاه كما طابت مَناسبُه

عناية قبل بدء الخلق سابقةٌ — من أجلها كان آتيه وذاهبُه

جاءت تبشرنا الرسل الكرام به — كالصُّبْح تبدو تباشيرا كواكبه

أخباره سِرُّ عِلْمِ الأَوْلين وسَلْ — بديرِ تيماءَ ما أَبْداه راهبُه

تطابق الكون في البشرى بمولده — وطبَّقَ الأَرْضَ أعلاما تُجاوبُه

فالجن تهتف إعلانا هواتفه — والجن تقذف إحراقا ثواقبُه

ولم تزلْ عِصْمةُ التأييد تكنفه — حتى انجلى الحقُّ وانزاحت شوائبُه

سَرى وجُنْحُ ظلامِ الليلِ مُنْسَدِلٌ — والنجمُ لا يهتدي في الأفْقِ ساريه

يَسْمو لكلِّ سماءٍ منه منفردٌ ... عن الأنام وجبرائيل صاحبُه

لمنتهىً وقفَ الرّوح الأمين به ... وامتاز قُرْباً فلا خلقٌ يقاربُه

لقاب قوسين أو أدنى فما علمت ... نفس بمقدار ما أولاه واهبُه

أداه أسرارَ ما قد كان أودعَه ... في الخلق والأمرُ باديه وغائبُه

وآبَ والبدر في بحر الدجى غرقٌ ... والصبحُ لما يؤُب للشرقِ آيبُه

فأشرقت بسناه الأرض واتبعت ... سُبل النجاة بما أبدت مذاهبُه

وأقبلَ الرشدُ والتاحت زواهره ... وأدبرَ الغيُّ فانجابت غياهبُه

وجاء بالذكر آيات مفصلة ... يهدي بها من صراط الله لاحبُه

نورٌ من الحكم لا تخبو سواطعه ... بحرٌ من العلم لا تفنى عجائبُه

له مقام الرضا المحمود شاهدُه ... في موقف الحشر إذ نابت نوائبُه

والرسلُ تحت لواء الحمد يقدمُها ... محمد أحمدُ السامي مراتبُه

له الشفاعات مقبولا رسائلها ... إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبُه

والحوض يروي الصدى من عذب مورده ... لا يشتكي غلةَ الظمآنِ شاربُه

محامد المصطفى لا ينتهي أبدا ... تعدادها، هل يعُدُّ القطرَ حاسبُه

فضلٌ تكفل بالدارين يوسعُها ... نعمى ورحمى فلا فضلٌ يناسبُه

حسبي التوسل منها بالذي سمحت ... به القوافي وحلتها غرائبُه

حيّاه من صلوات الله صوبٌ حيا ... تحدى إلى قبره الزاكي نجائبُه

البحترى يصف الذئب

البحترى هو الوليد بن عبيد بن يحيى، وكنيته أبو عبادة، وهو من شعراء العربية العظام، عاش فى العصر العباسى، وكان صاحب مذهب فى الشعر، أهله لتربع قمة الإبداع فى حسن التعبير عن معانيه بوضوح وجمال، فبدت وكأنها، كما يقول ابن الأثير "نساء حسان عليهن غلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلى" ولقد كان البحترى يعرف تمام المعرفة أن جمال المعنى يتطلب منه جمال اللفظ فهو الذى يقول:

واللفظُ حَلْيُ المعنى وليس يريك الصُّفْرَ حُسْنًا يُرِيكَهُ ذَهَبُهُ

والبحترى هو الشاعر حين يقول:

الشعر لَمْحٌ تَكْفِى إشارَتُه . . وليس بالهذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُه

والدارس لشعر البحترى يجد أن المعانى عنده أرواح تتحرك وتتنفس فهو الذى يخلق الجو الملائم لها من ألوان وتأليف وأوزان وصياغة، ذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه "ديوان المعانى" أن الصولى قال سمعت عبد الله بن المعتز يقول : لو لم يكن للبحترى إلا قصيدته السينية فى وصف إيوان كسرى، فليس للعرب سينية مثلها، وقصيدته فى البركة "ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها "واعتذراته فى قصائده إلى الفتح التى ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة إلى النعمان مثلها، وقصيدته فى دينار بن عبد الـــتى، وصف فيها مالم يصفه أحد قبله أولها "ألم تر تغليس الربيع المبكر "ووصف حرب

المراكب فى البحر، لكان أشعر الناس فى زمانه، فكيف إذا أضيف إلى هذا صفاء مدحه ورقة تشبيهه.

وقال ابن الأثير فى كتابه "المثل السائر" وهو يتحدث عن البحترى: وسئل أبو الطيب المتنبى عنه، وعن أبى تمام، وعن نفسه، فقال. أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحترى، ولعمرى إنه أنصف فى حكمه، وأعرب بقوله هذا عن متانه علمه، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدور من الصخرة الصماء، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء، فأدرك بذلك بُعْدَ المرام مع قُرْبه إلى الأَفْهام.

وقال الثعالبى فى كتابه "برد الأكباد " إن أبا القاسم الإسكافى قال: استظهارى على البلاغة بثلاثة: القرآن، وكلام الجاحظ،وشعر البحترى.

قال البحترى يصف الذئب ولقاءه إياه:

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد ... أما لكم من هجر أحبابكم بدّ؟

أأحبابنا قد أنجز البين وعده ... وشيكا، ولم ينجز لنا منكم وعد

أأطلال دار العامرية باللوى ... سقت ربعك الأنواء إما فعلت هند؟(1)

أدار اللوى بين الصريمة والحمى ... أما للهوى إلا رسيس الجوى قصد؟(2)

بنفسي من عذبت نفسي بحبه ... وإن لم يكن منه وصال ولا ود

حبيب من الأحباب شطت به النوى ... وأيّ حبيب ما أتى دونه البعد

إذا جزت صحراء "الغوير" مغربا ... وجازتك بطحاء "السواجير" يا سعد(3)

فقل لبني الضحاك مهلا فإنني ... أنا الأفعوان الصل والضيغم الورد

بني واصل، مهلا فإن ابن أختكم ... له عزمات هزل آرائها جد

متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى ... وإن كان خرقا ما يحل له عقد(4)

---

(١) العامرية تنسبه الى قبيلة بني عامر وفيهم ليلى العامرية، اللوى: ما التوى من الرمل أو مسترقه، الأنواء: جمع النوء: وهو النجم والمطر.

(٢) الصريمة: القطعة من معظم الرمل، الحمى: المكان فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعوه، الشقيقة: كل غلظ بين رملين، وهذه كلها مواضع.

(٣) البطحاء: مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى، الغوير: ماء لبني كلب، السواجير: نهر مشهور بالشام.

(٤) الخرق من الفتيان: الظريف في سماحة ونجدة.

مَهيبا كَنَصْل السيف لو قذفت به ... ذُرى "أجاء" ظَلَّتْ وأعْلامه وَهْد[1]

يَوَدُّ رِجالٌ أننى كُنْتُ بعْض من ... طوتْه المنايا لا أروحُ ولا أغْدو

ولولا احتمالى ثُقْل كلِّ مُلِمَّةٍ ... تَسوءُ الأعادىَ لم يَوَدُّوا الذى وَدُّوا

ذَرينى وإيَّاهُم فحَسْبى عَزيمتى ... إذا الحربُ لم يُقْدحْ لمُخْمدها زَنْدُ

ولى صاحب عَضْبُ المضاربِ صارمٌ ... طويلُ النِّجادِ ما يُفَلُّ له حَدٌّ[2]

وباكيةٍ تشكو الفِراقَ بِأدْمعٍ ... تُبادِرُها سَحًّا كما انْتَثَرَ العِقْد

رشادَك لا يُحْزِنْك بَيْنُ ابن همة ... يتوقُ إلى العلياءِ ليس له نِدٌّ

فمَنْ كان حُرًّا فهو للعَزْمِ والسُّرى ... ولليل من أفعاله والكَرى عَبْدُ

وليل كأن الصبح فى أخرياته ... حُشاشةُ نَصْلٍ ضَمَّ إفرنْدَه غِمْد[3]

تسرياته والذئبُ وَسْنانُ هاجعٌ ... بعَيْنِ ابن ليل ماله بالكَرى عَهْد[4]

أُثيرُ القطا الكُدْرى عن جثماته ... وتألفنى فيه الثَّعالب والرُّبْد[5]

---

(١) الأعلام : الأعالى والجبال، وهد: منخفضه، أجا: أحد جبلى طىء.

(٢) العضب : القاطع، وهو يصف سيفه، النجاد: حمائل السيف.

(٣) إفرند السيف : جوهرة ووشيه، ويقصد بحشاشة نصل: بقيته.

(٤) ابن ليل : يقصد اللص.

(٥) القطا : جمع القطاة، طائر فى حجم الحمام، الكُدْرى: المائل إلى السواد والغبرة جثماته: مراقده، الرُّبْد: جمع أربد، وهو الأسد.

واطلس ملء العين يحمل زوره ... وأضلاعه من جانبيه شوى نهد[1]

له ذنب مثل الرشاء يجره ... ومتن كمتن القوس أعوج منأد[2]

طواه الطوى حتى استمر مريره ... فما فيه إلا العظم والروح والجلد[3]

يقضقض عصلا فى أسرتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البرد[4]

سما لى وبى من شدة الجوع مابه ... ببيداء لم تحسس بها عيشة رغد

كلانا بها ذئب يحدث نفسه ... بصاحبه، والجد تيعسه الجد

عوى ثم أقعى وارتجزت فهجته ... فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد[5]

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها ... على كوكب فيقض والليل مسود[6]

فما ازداد الا جرأة وصرامة ... وأيقنت أن الأمر منه هو الجد

---

(١) أطلس: أى أغبر إلى سواد يصف لون الذئب، الزور: أعلى وسط الصدر، الشوى: اليدان والرجلان والأطراف، نهد: بارز.

(٢) الرشاء: الحبل، المتن: الظهر. المنأد: المعوج

(٣) الطوى: الجوع، المرير: ما اشتد فتله من الحبال.

(٤) يقضقض عصلا: أى يصوت بأسنان صلبة معوجة، الأسرة: الخطوط المقرور: الذى أصابه البرد.

(٥) أقعى: جلس على مؤخره، ارتجز: رفع صوته.

(٦) الخرقاء: أراد بها السهام.

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فخر وقد أوردته منهل المردى ... على ظمأ لو أنه عذب الورد

وقمت فجمعت الحصى واشتويته ... عليه، وللرمضاء من تحته وقد

ونلت خسيسا منه ثم تركته ... وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

لقد حكمت فينا الليالى بجورها؟ ... وحكم بنات الدهر ليس له قصد

أفى العدل أن يشقى الكريم بجورها ... ويأخذ منها صفوها القعدد الوغد؟

ذرينى من ضرب القداح على السرى ... فعزمى لايثنيه نحس ولا سعد

سأحمل نفسى عند كل ملمة ... على مثل حد السيف أخمصه الهند

ليعلم من هاب السرى خشية الردى ... بأن قضاء الله ليس له رد

فإن عشت محمودا فمثلى بغى الغنى ... ليكسب مالا أو ينث له حمد

وان مت لم أظفر فليس على امرئ ... غدا طالبا الا تقصيه الجهد

الرؤية النقدية للنص

إذا كنا نؤمن بأن الأدب هو فن التعبير عن رؤية صادقة للأديب عن الواقع، فإن نص البحترى قد تمثل واقعه خير تمثل، من خلال رؤية رمزية عكست ما يعتور نفس الشاعر من مشاعر الألم وذلك بسبب استخفاف أقاربه به، يقصد: "بنى واصل".

والقصيدة تعالج موضوع الوفاء والغدر، وقد استعاض الشاعر عن عدوه اللئيم بالذئب الذى يحمل نفس مكوناته وملامحه وصفاته.

ويلاحظ على قصيدة البحترى ما يلى:

(١) أنها بدأت بالوقوف على الأطلال "أطلال دار العامرية" وأن الشاعر قد تحدث عن حبيبه الذى عذبَ النفس بحبه، وتمتد هذه المعانى من البيت الأول حتى البيت السادس.

(٢) يعرض الشاعر ببنى الضحاك الذين هجاهم الشاعر فى شعره، ويميط لهم اللثام عن نفسه فهو أفعى داهية، بل هو الردى وإن كان يمتاز بالظرف والسماحة والنجدة، ويستمر الشاعر فى وصف نفسه بالشجاعة ورباطة الجأش فى مواجهة عدوه، ثم يتطرق إلى وصف سيفه "ولى صاحب عضب المضارب صارم" وتشكو امرأته فراقه إياها وتبكيه بأدمع متلاحقة، لكنه يهدئ من روعها ويبين لها أن همته قوية وأنه إنما يسعى إلى العلياء، ولا يسعى إليها إلا كل حر شريف: "فمن كان حرا

فهو للعزم وللسرى والليل من أفعاله والكرى عبد" وكل هذه المعانى السلسه الجميلة تمتد من البيت السابع وحتى منتهى البيت الثامن عشر.

(٣) ويأتى المحور الرئيسى فى القصيدة: وصف الذئب" فيدخلنا البحترى فى جوه الشعرى من خلال صوره الشعرية المتلاحقة التى أزكت فيه روح الشعر الخالدة، فيصف رحلته فى الليل من خلال صورة تشبيهية جميلة فى قوله.

وليل كأن الصبح فى أخرياته ٭٭ حشاشة نصل ضم إفرنده غمد

فشبه الصبح ساعة يولد فى آخر الليل ببقية سيف ناصع قد أدخل فى جرابه، والشاعر قد سرى فيه متسربلاً به، وكان الذئب فى ذلك الوقت هاجعا وعينه غير غافلة عما يدور حوله، كاللص الذى ينتظر فريسته ويتحين لها الفرصة.

ويؤكد البحتري أنه لايهاب الذئب ولا يخاف منه، فهو الذى (يثير القطا الكدرى عن جثمانه) وهو من كثرة سراه ليلا ألفته الثعالب والأُسْد.

والذئب لونه مائل إلى السواد يجلس متأهبا للانقاض على فريسته، وقد أضواه الجوع وأضناه السهر، وذيله مفتول مثل الحبل وهو هزيل ضعيف لم يبق منه سوى العظم والروح والجلد. وقد بدا يشاغل الوقت وهو يصوت بأسنان صلبة معوجة.... جائع خارج لمواجهة الشاعر فى الصحراء القاحلة فتذأب له الشاعر وهو يحدث نفسه عن الذئب وكلاهما جاد بصاحبه.

وأرسل الذئب صوتا مخيفا ثم أقعى أى جلس على مؤخره متحفزا لعدوه، ويثيره الشاعر برفع صوته، فيقبل عليه بوحشية، إقبال البرق الذى يتبعه الرعد، ويفلح الشاعر فى الإمساك بعدوه عندما يطعنه بطعنه نافذة من سهامه، لكن الذئب لا يأبه بها فما زادته إلا قوة على قوته، حتى أوشك الشاعر على الهلاك، ويناور الشاعر الذئب فيوجه نحوه ضربة أخرى فلم تصبه، ولكنها حركت فيه الحقد والغل والرعب.

وينهى الشاعر المعركة لصالحه ويقتل الذئب، ويجمع الحصى ويشتويه عليه:

فخر وقد أوردته منهل الردى	على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمعت الحصى واشتويته	عليه، وللرمضاء من تحته وقد

وهكذا القليل القدر قد نلت من شبيهه "الذئب" ثم تركته فى الصحراء القاتله وهو ممرغ فى تراب الحقد والضغينة... وغرائب الأيام أن ينعم فى الدنيا أخو الحقد والنفاق ويذل الكريم الحر، وهذا ليس من العدل فى شىء، لذلك يعبر الشاعر عن هذا المعنى فى استفهام إنكارى مرير، فيقول:

أفى العدل أن يشقى الكريم بجورها	ويأخذ منها صفوها القعدد الوغد؟

ويشغل هذا المحور الأبيات من البيت التاسع عشر وحتى البيت السادس والثلاثين.

(٤) المحور الاخير: ويمثل خاتمة القصيدة، وهو يحوى حوارا نفسيا ممتعا بين الشاعر وزوجته التى تنهاه عن اقتحام الأهوال والمخاطر، وتدعوه إلى ضرب القداح إذا أراد الخروج على عادة العرب الذين كانوا يستخيرون القداح عند خروجهم، ولا يلبى الشاعر طلب زوجته، لأن عزمه قوى لا يثنيه نحس القداح ولا سعدها، ويحذر الشاعر زوجته وكل من يحاول أن يجعله يجبن عن الخروج خشية الموت بأن قضاء الله ليس له رد، سواء خرج الإنسان أم قعد.

وتتمثل فلسفة الشاعر فى الحياة، فى مواجهة أخطارها بقوة وشجاعة فإن عاش محمودا فقد كان يبغى الجاه والغنى ليذاع صيته، وإن مات لم يظفر بما أراد، فكفاه أنه طلاب للمجد، وسعيه له.

والقصيدة بعد كل ذلك حافلة بالصور الشعرية الكنائية والاستعارية سيما الصور الاستعارية التشخيصية التى يجد المرء فيها انفلاتا من أسر الجمود إلى رحابة الحركة، وجوهر الشعر وهى نموذج أصيل من نماذج الشعر الرمزى، الذى كنى فيه الشاعر عن عدوه الجبان الحقود الخامل بالذئب ولا يخفى مابين الذئب والحقود من سمات مشتركة راسخة وأصيلة.

وتبقى كلمة: لقد أثبت لنا البحترى أنه هو الشاعر، كما قال المتنبى وأن أبا تمام والمتنبى الحكيمان على حد زعم المتنبى.

وصية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه

مقدمة عن سيرة الإمام عليه السلام:

عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال للإمام على:

"حبك إيمان، وبغضك نفاق، وأول من يدخل الجنة محبك وأول من يدخل النار مبغضك.

فما من مسلم يجهل موضع على -كرم الله وجهه- من ابن عمه الرسول الكريم بالقرابة والمنزلة، وضعه فى حجره وهو ولد يضمه إلى صدره، ويكنفه فى فراشة، ويمسه جسده، ويشمه عرقة، ولم يجمع بيت واحد فى الاسلام غير الرسول عليه الصلاه والسلام وخديجة أم المؤمنين، وكان على ثالثهما، يرى نور الوحى والرسالة ويشم ريح النبوة.

وعلى كرم الله وجهه رأى نبيه الكريم بنفسه فى المواطن التى تنكس فيها الأبطال وتزل فيها الأقدام، وحسبك أنه ليلة الهجرة بات فى فراش الرسول -صلى الله عليه وسلم- غير جازع أن يموت فداه، وشهد معه جميع مغازيه إلا ماكان من غزوة تبوك التى خلفه فيها الرسول فى أهل بيته قائلا له: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوة بعدى".

وفى مواقفه الشجاعة ليلة الهجرة يقول أحد الشعراء:

ومواقـف لـك دون أحمـد جـاوزت	بمقـامك التعريـف والتحديـدا
فعلـى الفـراش تبيـت ليلـك والعـدى	تهـدى إليـك بوارقـا ورعـودا
فرقـدت مثلـوج الفـؤاد كأنمـا	يهـدى القـراع لسـمعك التغريـدا
فكفيـت ليلتـه وقمـت معارضـا	بـالنفس لا فشـلا ورعديـدا
واسـتصبحوا فـرأوك دون مرادهـم	جبـلا أشـم وفارسـا صنديـدا
وضلوا الصباح لينفقـوا كـنز الهـدى	أو مـا دروا كـنز الهـدى مرصـودا

سجل التاريخ له أجل الموقف وأسماها، فهو أحد المبارزين يوم بدر، وقاتل عمرو بن ود فى غزوة الخندق، وأحد النفر الذين ثبتوا مع الرسول الكريم فى غزوتى أحد وحنين، وصاحب راية المسلمين يوم خيبر، وفيها أبلى أحسن البلاء.

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكرمه، فزوجه ابنته فاطمة الزهراء فى السنة الثانية من الهجرة. فأولدها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وعهد إليه أن يتلو على الناس فى موسم الحج أول سورة التوبة إيذانا ببراءة الله ورسوله من المشركين.

ومن خصائص الإمام على كرم الله وجهه أنه كان يتورع عن الظلم فمن ذلك أنه لم يبدأ أحدا قط بقتال، وله مندوحة عنه، واتفق فى صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى "كريز بن الصباح الحميرى"، فصاح

بين الصفين: من يبارز؟ فخرج من أصحاب على إليه رجل فقتله، ووقف عليه ينادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى من يبارز؟ فخرج اليه ثالث، فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى من يبارز؟ فأحجم الناس، ورجع من كان فى الصف الأول إلى الصف الذى يليه، وخاف الإمام على أن يشيع الرعب بين صفوفه، فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه، فصرعه ثم نادى نداء حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم قال:

"يأيها الناس إن الله عز وجل يقول: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) ولو لم تبدعونا ما بدأناكم "ثم رجع إلى مكانه؛ ومن صفاته وخصائصه أيضا: العلم والفصاحة والبلاغة، يقول ابن عباس: "والله لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم، وايم الله لقد شاركهم أو شاركهم فى العشر العاشر " وكفى فى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " أنا مدينة العلم أو مدينة الحكمة وعلى بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه"

وانظر إلى ابن أبى مخفق لما قال لمعاوية: "جئتك من عند أعيا الناس" قال له: ويحك، كيف يكون أعيا الناس، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره".

ولما غربت شمس النبوه"، ولحق الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالرفيق الأعلى، طمع فى خلافته كثيرون من المهاجرين والأنصار،

وبدا للناس يومذاك أن بنى هاشم كانوا يريدون الخلافة فيهم، ويرون عليا أحق الصحابه بها، لمكانته العظمى من الرسول الكريم، وسعة علمه، ومواقفه الخالدة فى نصرة الاسلام، فلاعجب إذا أقبل العباس عم النبى على ابن أخيه على يقول له: "ابسط يدل ولنبايعك" لكن عليا كرم الله وجهه تباطأ فى قبول هذه البيعه، وظل متشاغلا بدفن الرسول العظيم. وانطفأت الفتنة.

وبايع الإمام على أبا بكر بالخلافة ومن بعده بايع عمر بن الخطاب، لأنه كان يعلم أن أبغض شىءأن يدب الخلاف بين المسلين، ولما طعن عمر رفض ان يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد الله من بعده، وترك الأمر شورى بين المسلمين وأوصى بأن يختار أحد السته: على بن أبى طالب، سيد بنى هاشم، وعثمان بن عفان شيخ بنى أميه، وطلحة بن عبيد الله كبير بنى تميم، والزبير ابن العوام، زعيم بنى أسد، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رأسا بنى زهرة.

وبايع الأمام على عثمان بن عفان بالخلافه للمرة الثالثة ليحقن دماء المسلمين وإن فى العين قذى، وفى الحلق شجا.

وقام على -كرم الله وجهه- من بين الصحابة يلوم عثمان على تولية أقاربه، ولما ثار عليه المعارضون من عرب الأمصار، أرسل الإمام-لحراسته والدفاع عنه- ولديه الحسن والحسين ولكن الثائرين حاصروا دار عثمان، وألزم أن يخلع نفسه من الخلافه فحم القضاء، ولقى مصرعه وهو جالس فى المحراب يقرأ القرآن.

وانثال على الإمام على كرم الله وجهه عرب الأمصار وأهل بدر والمهاجرين والأنصار وهرعوا إليه يقولون: أمير المؤمنين، فلم يجد بدا من قبول الخلافه فى ٢٥ من ذى الحجه سنه ٣٥هـ ، ولقد كانت مهمته خطيرة، اضطلع بها قرابة خمس سنين، ولم يصف له فيها يوم واحد .

ثم كان ما كان بينه وبين معاويه يوم صفين وتحكيم الحكمين، ثم بداية الوهن، وتصدع الصفوف بين أتباع على، وعرف معاوية كيف ينتهز الفرصة بإثارة الاضطرابات فى أرجاء البلاد، فازدادت نقمة الخوارج، وقرروا قتل معاوية وعلى. فلم ينجحوا فى قتل أولهما، أما على فقتله ابن ملجم- لعنه الله- وهو يصلى فى المسجد فى شهر رمضان سنة ٤٠هـ وهو يردد: "الحكم لله، لا لك يا على" ثم انتهت خلافه الراشدين، وخلا الجو لمعاوية ليعلن خلافته بالشام، ويدخل على نظام الحكم مبدأ الوراثة الذى ينافى روح الاسلام.

والوصية التى نضعها الآن بين يديك، والتى وصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم الإمام على كرم الله وجهه، تتضمن الدستور الأمثل الذى يجب أن يعمل به بنو الاسلام فى كل زمان ومكان، ومن حفظها عاش حميدا ومات شهيدا، ويبعثه الله يوم القيامه فقيها عالما.

"النص" [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاه والسلام على سيدنا محمد وعلـى آلـه وصحبه وسلم. وبعد: فهذه وصية المصطفى -عليه الصلاه والسلام- لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه.

قال: دعانى رسول اللـه -صلى اللـه عليـه وسلم- فخلوت معـه فـى منزله فقال لى: يا على أنت منى بمنزلة هـارون مـن موسـى -عليـه السـلام- غير أنه لا نبى بعدى. إنى أوصيك اليوم بوصية إن أنت حفظتها عشت حميـدا ومت شهيدا وبعثك الله يوم القيامة فقيها عالما:

ياعلى: من أكل الحلال صفا دينه ورق قلبه ولم يكن لدعوته حجاب.

ياعلى: من أكل الشبهات اشتبه عليه دينه وأظلم قلبه، ومـن أكـل الحـرام مـات قلبه، وخف دينه، وضعف يقينه، وحجب الله دعوته، وقلت عبادته.

---

(١) انظر: هامش المنح السنية على الوصيـة المتبوليـة لسيدى عبد الوهـاب الشـعرانى الطبعة الخامسة، مكتبة مصطفى البابى الحلبى القاهرة ١٩٥٩.

ياعلى: إذا غضب الله على أحد رزقه مالا حراما، فإذا اشتد غضبه عليه وكل به شيطانا يبارك له فيه، ويصحبه، ويشغله بالدنيا عن الدين، ويسهل له أمور دنياه ويقول: الله غفور رحيم، ياعلى: ماسافر أحد طالبا الحرام ماشيا إلا كان الشيطان قرينه، ولاراكبا إلا كان رديفه، ولاجمع أحد مالا حراما إلا أكله الشيطان ولانسى أحد اسم الله تعالى عند الجماع إلا شاركه الشيطان فى ولده وذلك قوله تعالى: "وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم" يا على: لا يقبل الله تعالى صلاة بلا وضوء ولا صدقة من الحرام، ياعلى: لا يزال المؤمن فى زيادة فى دينه مالم يأكل الحرام، ومن فارق العلماء مات قلبه، وعمى عن طاعة الله تعالى ..... يا على: من قرأ القرآن ولم يحل حلاله ولم يحرم حرامه كان من الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

فصل فى الوضوء:

ياعلى: استقص إسباغ الوضوء فإنه شطر الإيمان، فإذا توضأت فلا تسرف فى الماء، فاذا فرغت من طهر فاقرأ- إنا أنزلناه فى ليلة القدر- من بعد غسل القدمين عشر مرات يفرج الله همك.

ياعلى: إذا فرغت من الطهارة فخذ الماء وامسح بيديك رقبتك، وقل: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، أستغفره وأتوب إليه ثم انظر إلى الأرض، وقل أشهد أن محمدا عبدك ورسولك، فإن من قال هذا غفر الله له كل صغيرة وكبيرة.

ياعلى: من اغتسل يوم الجمعة غفرله‌الله مابين الجمعة إلى الجمعة، وجعل ذلك ثوابا فى قبره وثقلا على ميزانه.

ياعلى: عليك بالسواك ففيه أربعة وعشرون فضيله فى الدين والبدن.

ياعلى: عليك بالصلاة فى أوقاتها فإنها رأس كل فضيلة وسنام كل عبادة.

ياعلى: تمنى جبريل أن يكون من بنى آدم لسبع خصال: الصلوات الخمس مع الإمام، ومجالسه العلماء، وعياده المريض، وتشييع الجنازة، وسقى الماء، والصلح بين الاثنين، وإكرام الجار واليتيم، فاحرص على ذلك.

ياعلى صل بالليل ولو كحلب شاة، فالمصلى بالليل أحسن الناس وجها.

ياعلى: إذا كبرت للصلاة ففرج اصابعك وارفع يديك حذو منكبيك وإذا كبرت فضع يمينك على شمالك تحت سرتك، وإذا ركعت فضع يديك على ركبتك وفرج بين أصابعك.

ياعلى: أسفر بالصبح، وصل المغرب بعد غياب الشمس بقدر حلب شاة، فإن ذلك من خصال الأنبياء عليهم السلام. ياعلى: عليك بصلاه الجماعة فإنها عند الله كمشيك إلى الحج والعمرة، وما يحرص على صلاة الجماعة إلا رجل مؤمن، قد أحبه الله، وما يزهد فيها إلا منافق قد أبغضه الله.

ياعلى: أحب العباد إلىَّ عبد ساجد، يقول فى سجوده: رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ياعلى: عليك بصلاة الضحى فى السفر والحضر، فإنه إذا كان يوم القيامة ينادى مناد من فوق شرف الجنة: أين الذين كانوا يصلون الضحى؟ ادخلوا من باب الضحى بسلام آمنين، وما بعث الله من نبى إلا وأمر بصلاة الضحى.

ياعلى : من كرامة المؤمن زوجة موافقة، والصلاة جماعة وجيران يحبونه.

فصل في الصوم:

قال عليه الصلاه والسلام: " من صام رمضان، واجتنب الحرام فيه والبهتان رضى عنه الرحمن وأوجب له الجنان " ياعلى من أتبع رمضان بست من شوال كتب الله له صوم الدهر كله.

فصل في الصدقة:

قال عليه الصلاة والسلام:

ياعلى: إن أولياء الله تعالى لم ينالوا سعة رحمة الله ورضوانه بكثرة العبادة ولكن نالوها بسخاوة النفس والاستهانة بالدنيا.

ياعلى: السخى قريب من الله، قريب من رحمته، بعيد من عذابه، والبخيل بعيد من الله، بعيد من رحمته، قريب من عذابه.

ياعلى: رأيت مكتوبا على باب الجنة: أنتِ محرمة على كل بخيل وعاق ونمام، ياعلى: لما خلق الله الجنة قالت: يارب لم خلقتنى؟ قال لكل سخى وتقى قالت رضيت، وقالت النار يارب لم خلقتنى؟ قال لكل بخيل ومتكبر، قالت أنا لهما: ياعلى: من خالف هواه كانت الجنة مأواه ومن أطاع هواه كانت جهنم مثواه.

ياعلى: اتق دعوة السخى فإنه متى عثر أخذ الله بيده، ياعلى: من أطعم مسلما بطيب نفس كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، ياعلى: حب لأخيك كما تحب لنفسك، ياعلى: اطلب الخير عند

صباح الوجوه، وأكرم الضيف، فإنه إذا نزل بقوم نزل معه رزقه، وإذا ارتحل ارتحل بذنوب أهل المنزل فيلقيها فى البحر.

ياعلى: لم تدخل الملائكة بيتا فيه تصاوير أو تماثيل أو عاق لوالديه أو بيت لايدخله ضيف- ياعلى: اصنع المعروف ولو مع السفلة: قال على: وما السفلة يارسول الله؟ قال الذى إذا وعظ لم يتعظ وإذا زجر لم ينزجر ولا يبالى بما قال وماقيل لـه، ياعلى: صدقة السر تطفئ غضب الرب، وتجلب البركة، والرزق الكثير، وباكر بالصدقة، فإن البلاء ينزل قبل البكور، فترد القضاء فى الهواء.

ياعلى: إذا تصدقت فتصدق بأحسن ماعندك، فإن صدقة لقمة من حلال أحب إلى الله من مائه مثقال من حرام، وصدقة تقدمها قبل موتك أفضل من مائه مثقال يتصدقون بها بعد موتك، قال الله تعالى: "يوم ينظر المرء ماقدمت يداه" ياعلى: تصدق على موتاك فإن الله تعالى قد وكل ملائكة يحملون صدقات الأحياء إليهم فيفرحون، بها أشد ما كانوا يفرحون فى الدنيا ويقولون: اللهم اغفر لمن نور قبرنا، وبشره بالجنة، كما بشرنا بها، ياعلى: اعمل خالصا لله فان الله لا يقبل إلا من كان خالصا لوجهه، قال الله تعالى- فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا."

فصل فى الدعاء والاستغفار والقرآن وسائر الأذكار:

قال عليه الصلاة والسلام: ياعلى عليك بالدعاء بين الأذان والإقامة: فإنه لا يرد، يا على: إذا دعوت فابسط يدك حذو صدرك، ولا ترفعها فوق رأسك وتشير إلى الله تعالى بسبابتك اليمنى.

ياعلى: لا تجهر بقراءتك ولا بدعائك حيث يصلى الناس فان ذلك يفسد عليهم صلاتهم، ياعلى من ذكر الله قبل الفجر، وقبل طلوع الشمس، وقبل غروبها استحيا الله أن يعذبه بالنار، ياعلى: إذا صليت فاقعد مكانك حتى تطلع الشمس فإن الله يكتب لمن يجلس مكانه حجه وعمره أو عتق رقبة أو صدقة ألف دينار في سبيل الله، ياعلى: من قال كل يوم خمسا وعشرين مرة استغفر الله العظيم لى ولوالدى ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، كتبه الله من أوليائه، ياعلى: من قال كل يوم عشر مرات لا إله إلا الله قبل كل أحد، لا إلة إلا الله بعد كل أحد، لا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى كل أحد لم يبق ملك فى السموات إلا استغفر له، ياعلى: من قال كل يوم: اللهم بارك لى فى الموت، وفيما بعد الموت، لم يحاسبه الله بما فعله فى الدنيا، ومن كبر مائة مرة قبل الشمس ومائه قبل الغروب، كتب الله له ثواب مائة عابد، ومائه مجاهد فى سبيل الله تعالى، ومن صلى على كل يوم أو ليله مائة مرة، وجبت له شفاعتى، وكثرة الاستغفار حصن للتائبين من النار.

فصل فى الصدق والصداقة:

قال عليه السلام ياعلى: أصدق وإن ضرك فى العاجل، فإنه ينفعك فى الآجل ولا تكذب، وإن نفعك فى العاجل، فانه يضرك فى الآجل، ياعلى: من كثرت ذنوبه ذهب بهاؤه، ياعلى: عليك بصدق الحديث، وحفظ الحديث، وحفظ الأمانة وسخاء النفس، وعفة البطن.

ياعلى: بئس الصديق الذى يقصر فى صديقه، يفشى سره.

ياعلى: الف صديق قليل، وعدو واحد كثير، ياعلى: للصداقة علامات أن يجعل ماله، دون مالك، ونفسه دون نفسك، وعرضه دون عرضك.

فصل فى التوبة:

قال عليه الصلاه والسلام ياعلى: لا توبة للتائب حتى يغسل بطنه من الحرام بطيب كسبه، ياعلى: إذا لم يكن العالم تقيا ظلت موعظته على قلوب الناس كما يظل القطر على بيض النعام والصفا.

ياعلى: إذا مضى على المؤمن اربعون صباحا، ولم يجالس العلماء قسا قلبه وجسر على الكبائر، لأن العلم حياة القلب، ياعلى: إن الله لا يستحى من عذاب غنى سارق، وعالم فاسق.

فصل فى حفظ اللسان:

قال عليه الصلاة والسلام: لا تعير أحدا بما فيه، فما من لحم إلا وفيه عظم ولا كفارة للغيبة حتى يستحله، أو يستغفر له.

ياعلى: ماخلق الله فى الانسان أفضل من اللسان به يدخل الجنة، ويدخل النار فاسجنه، فإنه كلب عقور، ياعلى: لا تلعن مسلما، ولا دابة فترجع اللعنة عليك.

فصل فى الحياء:

قال عليه الصلاة والسلام: ياعلى، الدين كله فى الحياء، وهو أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى.

فصل فى الورع:

قال عليه الصلاه والسلام: ياعلى لا دين لمن لا خشية له، ولا عقل لمن لا عصمة له، ولا إيماء لمن لا ورع له، ولاعبادة لمن لا علم له، ولا مرؤه لمن لا صدقة له، ولا أمان لمن لا سر له، ولا توبة لمن لا توفيق له ولا سخاء لمن لا حياء له، ياعلى: من لم يكن ورعا عن المعاصى فبطن الأرض خير له من ظهرها، لأنه لا إيمان فى قلبه.

ياعلى: أصل الورع ترك الحرام، وماحرم الله، ورأس الكرم فى ترك المعاصى، ياعلى: إن الرجل ليبلغ بالخلق الحسن درجة الصائم القائم الغازى فى سبيل الله، ياعلى: كن بشاشا، فإن الله يحب البشاشين ويبغض العبوس الكريه الوجه، ياعلى: رأس العبادة الصمت إلا من ذكر الله، ياعلى: كثرة النوم تميت القلب، وتذهب البهاء، وكثرة الذنوب تميت القلب وتورث الندم.

ياعلى: من أنعم الله عليه فشكر، وابتلاه فصبر، وأساء فاستغفر، دخل الجنة من أى باب شاء، ياعلى: لاتفرح، إن الله لا يحب الفرحين، وعليك بالحزن فإن الله يحب كل حزين، ياعلى: ما من يوم جديد إلا ويقول يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد، فانظر ماذا تفعل.

فصل فى ذم الدنيا:

قال عليه الصلاة والسلام: ياعلى: إياك وعلية القوم لا يذكرون إلا دنياهم، فقال على وما هم يا نبى الله، قال الأغنياء وأصحاب الدنيا الذين تراهم مقبلين على جمعها، كإقبال الوالدة على ولدها، أولئك هم الخاسرون غدا.

فصل فى تعريف احوال الناس عند الله تعالى:

قال عليه الصلاة والسلام خير الناس عند الله تعالى أنفعهم للناس، وشرهم عند الله تعالى، من طال عمره وساء عمله، وخيرهم من طال عمره وحسن عمله، وأبغض الناس إلى الله من أكل وحده، ومنع رفده وضرب عبده، وأكرم الغنى وأهان الفقير، وأشر منه من عاش فى الحرام، ومات فى الحرام، وأشر منه من طال عمره، وساء فعله، ولا يتوب عما نهى الله تعالى عنه، وهو يطمع فى مغفرته، واشر منه من ذهب أول عمره غفلة، وآخره كسلا عن طاعة الله تعالى.

فصل: فى علامات الخير:

قال عليه الصلاة والسلام: علامات الخَير حسن السريرة عند الله، وحسن الخدمة، ياعلى: للمؤمن ثلاث علامات: بغض المال، وبغض النساء، وبغض الكلام فى أعراض الناس، ياعلى: للعاقل ثلاث علامات الاستعانة بالدنيا على الآخرة واحتمال الجفا، والصبر على الشدائد، للعالم ثلاث علامات: صدق الكلام واجتناب الحرام، والتواضع، وللتقى ثلاث علامات: يتقى الكذب، والخبث، وجليس الشر، ويدع شطر الحلال مخافة أن يقع فى الحرام.

ياعلى: للصدق ثلاث علامات: كتمان العبادة، وكتمان الصدقة، وكتمان المصيبة، ياعلى وللعابد ثلاث علامات: يمقت نفسه، ويحاسبها، ويطيل القيام بين يدى الله تعالى، وللصالح ثلاث علامات، يصلح بين الله وبينه بالعمل

الصالح، ويصلح دينه بالعمل، ويرضى للناس مايرضى لنفسه، ياعلى وللسعيد ثلاث علامات، قوت حلال، ومجالسة العلماء، والصلوات الخمس مع الإمام. ياعلى: وللمؤمن ثلاث علامات: يبادر فى طاعة الله، ويتجنب المحارم، ويحسن إلى من أساء إليه، ياعلى: وللسخى ثلاث علامات: العفو عند المقدرة، وإخراج الزكاة، وحب الصدقات، ياعلى وللحليم ثلاث علامات: يصل من قطعة، وبعطى من حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ياعلى وللصبور ثلاث علامات: الصبر على طاعة الله، والصبر على المصيبة، والصبر على قضاء الله، ياعلى: وللتائب ثلاث علامات، اجتناب الحرام، والحرص على طلب العلم، ولا يعود للذنب كما لا يعود الحليب للضرع.

فصل فى علامات الشرك:

قال عليه الصلاة والسلام يا على: للكافر ثلاث علامات، الشك فى الله والبغض فى عباد الله، والغفلة عن طاعة الله، ياعلى: وللمنافق ثلاث علامات، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذ ائتمن خان، ولا تنفعه موعظة، ياعلى: وللمرائى ثلاث علامات: يتم ركوعه وسجوده مع الناس، وينقصه إذا صلى وحده، وينشط للمرء الذى يثنى عليه، ولا يذكر الله فى الخلا ويذكره فى الملا.

ياعلى وللأحمق ثلاث علامات: التهاون فى فرائض الله، وكثرة الكلام فى ذكر الله والطعن فى الله، ياعلى: للمخذول ثلاث علامات: كثرة الكذب، وكثرة الأيمان الفاجرة، وكثرة الحوائج إلى الناس، ياعلى: وللشقى ثلاث

علامات : قوت حرام واجتناب العالم وصلاته لوحده ، وللمجرم ثلاث علامات : حب الفساد وغر العباد واجتناب الرشاد . يا على : وللظالم ثلاث علامات : لا يبالى من أى شئ يأكل ويقهر مدينة ويبطش إذا مكنه .

(فصل : فى الأدعية)

قال عليه الصلاة والسلام يا على : إذا دخلت المسجد فابدأ برجلك اليمنى واطلع برجلك اليسرى .. يا على : عليك بسورة يس صباحاً ومساءًا .. فإن مَن قرأها كذلك كان فى أمان الله .

يا على : مَن قرأ سورة البقرة ليلة الجمعة طلع له نور ما بين السماء السابعة إلى تحت الأرضين ، ومَن قرأ سورة الدخان وسورة الملك ليلة الجمعة غفر الله ذنوبه وكفى فتنة القبر ، ومَن قرأ عند مضجعه آخر آية الكهف بنى له من النور من رأسه إلى كعبه ، ومَن قرأ سورة الطارق عند مرقده كتب له عدد نجوم السماء حسنات .. يا على : مَن قرأ سورة الملك وتلا بعد قراءاتها : اللهم اعصمنى بالإسلام قائماً ، واعصمنى بالإسلام قاعداً وراقداً ، ولا تشمت فىَّ عدواً ولا حاسداً .. اللهم إنى أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، وأسألك الخير الذى بيدك كفاه الله ما أهمه من الجن والإنس والدواب .

يا على : إذا أردت حاجة فاقرأ آية الكرسى وادع الله فى الهموم والكروب وقل يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث فاغفر لى وأصلح لى شأنى وفرِّج همى فإن الله يكشف عنك الهموم ويفرِّج عنك الكروب ويقضى لك الحوائج .

يا على : إذا أصابك هم أو أمر فقل سبحانك ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت أنت رب العرش العظيم .. يا على : أكثر من الدعاء الذى علمينه جبريل عليه السلام ، وهو الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة .

ياعلى: اذا رأيت الهلال فهلل ثلاثا، وكبر ثلاثا، قل: الله أكبر وأعز وأقدر مما أخاف وأحذر، ياعلى: إذا لقيت من تحذره فقل: اللهم إنى أدرا بك فى نحره وأستكفيك غضبه، وأعوذ بك من شره.

فصل فى فنون شتى:

قال عليه الصلاه والسلام: ياعلى: ابدأ من لقيت من المسلمين بالسلام يكتب الله لك عشرين حسنة، ورد السلام، فالله يكتب لمن رده أربعين حسنة، ياعلى: إياك والغضب، فإنه من الشيطان، وهو أقدر ما يكون عليك فى حالة الغضب وإياك ودعوة المظلوم، فإن الله يستجيب له، وإن كان كافرا فعليه كفره، ياعلى: إياك واليمين الفاجرة فإنها منفقة للسلعة ومسحقة للرزق والعمر، ياعلى من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، أرغم الله أنف عدوه، ومن صدق فى أموره غضب الله لغضبه، وإذا بكى أضحكه.

ياعلى : الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، ياعلى سبعة من أمتى فى الجنة: شاب تائب، ومن تصدق سرا، ومن يؤدى صلاة الضحى، ومن كان ذهاب ماله أهون عليه من فوات صلاة واحدة مع الإمام، ومن دمعت عيناه من خشية الله، ومن زاحم العلماء فى مجالسهم.

ياعلى: من أرشد الأعمى بيده اليسرى جاء يمينه فى يمينك.

ياعلى: إذا كان الانسان فى سكرات الموت فان مفاصله تسلم على بعض، تقول: السلام عليك فإنى مت، وكذا الشعرة البيضاء على الشعرة السوداء.

ياعلى: احفظ وصيتى كما حفظتها عن جبريل عن رب تقدست أسماؤه، ولا إله غيره.

الحــــــزن

للشاعر صلاح عبد الصبور

صلاح عبد الصبور شاعر مصرى معاصر، تميز شعره بالأصالة والعمق والالتحام بالواقع ومعالجة قضاياه الحساسة بجرأة وجسارة، انتقل بالشعر العربى من إطاره الكلاسى الملتزم بالوزن والقافية وتعدد الموضوعات إلى اتجاه جديد أرسى قواعده وتربع على عرشه، أطلق عليه النقاد: المدرسة الواقعية فى الشعر، وعنى صلاح عبد الصبور وشعراء جيله ومدرسته بالخروج إلى الواقع ورصد حركته، وتميزت هذه الصيحة الجديدة فى عالم الشعر بالخروج على قواعده فلم يعد البيت وحدة القصيدة، ولم تعد الألفاظ القاموسية الرنانة تغرى الشاعر الحديث، فاشتق معجمه من حديث الناس وخلع عليه روح الشاعرية، واستعاض بالسطر الشعرى مكان البيت، وخلق لونا جديدا من القوافى، واعتمد على الموسيقى الداخلية، واحتفظ هذا اللون من الشعر بيجور الشعر العربى، سيما البحور الرائقة.

ونقصد بها البحور متحدة التفاعيل، ومن أبرز إنتاج صلاح عبد الصبور دواوين: الناس فى بلادى، أقول لكم، أحلام الفارس القديم، ومسرحيات مثل: عندما يموت الملك، الأميرة تنتظر، ومسافر ليل، ومأساة الحلاج، وتوفى صلاح عبد الصبور منذ سنوات تاركا وراءه تراثا ضخما من الشعر والمسرح، ومن الظواهر التى شاعت فى الشعر المعاصر ظاهرة

الحـزن: وقـد كـانت هـذه الظـاهرة ذات نصيـب وفـير فـى شـعر صـلاح عبـد الصبور فهناك قصيدتان فى شعره تحملان هذا الاسم وهما: "الحزن"

والشىء الحزين، ومما لاشك فيه أن الحـزن لـه روافـده العديـده علـى نحو ما سوف نرى عند عبد الصبور، فمن روافده الفقر والانهزام، والطغيان، وانعدام حرية الرأى، وقد يبدو أن الشاعر مستسلم، ولكنـه يمتلك الأمـل الـذى عبر عنه بقولـه "سنعيش رغم الحـزن، نقهره ونصنـع فـى الصبـاح أفراحنـا البيضاء" ، فللأرق الكثير من الإيحاء والرمـز، توحـى بهمـا القصيـدة، وهنـاك الخوف والرعب، وكلها معان تستدعيها القصيدة على نحو ما يشير إليه تحليـل النص.

القصيــــــدة (1)

يا صاحبى إنى حزين

طلع الصباح فما ابتسمت ولم ينر وجهى الصباح

وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزق المتاح

وغمست فى ماء القناعة خبز أيامى الكفاف

ورجعت بعد الظهر فى جيبى قروش

فشربت شايا فى الطريق

ورتقت نعلى

ولعبت بالنرد الموزع بين كفى والصديق

قل ساعة أو ساعتين

قل عشرة أو عشرتين

وضحكت من أسطورة حمقاء رددها الصديق

ودموع شحاذ صفيق

وأتى المساء

فى غرفتى دلف المساء

والحزن يولد فى المساء لأنه حزن ضرير

حزن طويل كالطريق من الجحيم إلى الجحيم

حزت صموت

والصمت لا يعنى الرضا بأن أمنية تموت

---

(1) ديون الناس فى بلادى ص٤٣ . طبعة دار الشروق.

وبأن أياما تفوت

وبأن مرفقنا وهن

وبأن ريحا من عفن

من الحياة فأصبحت وجميع مافيها مقيت

حزن تمدد فى المدينة

كاللص فى جوف السكينة

كالأفعوان بلا فحيح

الحزن قد قهر القلاع جميعها وسبى الكنوز

وأقام حكاما طغاة

الحزن قد سمل العيون

الحزن قد عقد الجباه

يقيم حكاما طغاة

* * *

يا تعسها من كلمة قد قالها يوما صديق

مغرى بتزويق الكلام

كنا نسير

كفى لكفيه عناق

والحزن يفترش الطريق

قال الصديق

يا صاحبى !

ما نحن إلا نفضة رعناء من ريح سموم

أو منية حمقاء

او أن اسمينا ببرج النحس كانا يا صديق

وجفلت فابتسم الصديق

ومشى به خدر رفيق

ورأيت عينيه تألقتا كمصباح قديم

فى كوخ حراس المنار

ومضى يقول:

"سنعيش رغم الحزن، نقهره ونصنع فى الصباح أفراحنا البيضاء، أفراح الذين لهم صباح"

ودنا إلى

ولم تكن بشراه مما قد خلا من كل ذوتى

أما أنا فلقد عرفت نهاية الحدر العميق

الحزن يفترش الطريق.

من مظاهر الظلم فى العصر الأموى

شكوى العمال

للراعى النميرى

الراعى النميرى: هو عبيد بن حصين، من بنى نمير، من قيس عيلان، وسمى بالراعى لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته لها، وهو من فحول الشعراء فى العصر الأموى هجاه جرير بالبيت المشهور:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولاكلابا

ويعده أبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام من أصحاب الملحمات مع الفرزدق وجرير والأخطل، وهو عند ابن سلام الجمحى، صاحب كتاب "طبقات فحول الشعراء" من شعراء الطبقة الأولى من فحول الاسلام.

وقد نظم الراعى قصيدته التالية، واتجه بها إلى عبد الملك بن مروان وألقاها أمامه، شاكيا السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة من القبائل، وهذه القصيدة وثيقة تدين حكم بنى أمية، فهم مسئولون عن ظلم الولاة والعمال والرعية.

والسؤال الآن: هل كان ظلم العمال لبنى نمير وسائر قبائل قيس عيلان بإيعاز من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى لم ينس بسهولة مناصرتها لابن الزبير؟ نحن نميل إلى هذا الأمر ونعده صحيحا، ومن هنا فإن

لاميه الراعى النميرى، هذه الوثيقة إدانـة لعبد الملـك بـن مـروان وبنـى أميـة أجمعين لأنهم فى النهاية حكام المسلمين ومسئولون عنهم.

" القصيـــــدة "

مـــا بـــال دَفِّـــك بـــالفراش مَذيـــلا	أقـــذى بعينـــك أم أردت رحيـــلا[١]
لمـــا رأت أرقـــى وطـــول تلـــددى	ذات العشـــاء وليلـــى الموصـــولا[٢]
قـــالت خليـــدةِ مـــاعراك؟ ولم تكـــن	أبـــدا إذا عـــرت الشـــئون ســـئولا[٣]
أخليـــد إن أبـــاك ضَـــاف وســـاده	همـــان باتـــا جنبـــه ودخيـــلا[٤]
طرقـــا فتلـــك همـــاهم أَقْرِيهمـــا	قُلُصـــا لواقـــحَ كالقســـى وحـــولا[٥]

---

(١) البال : الحال أو الشأن، دفك: جنبك. مذيلا: قلقا، القذى: ما يسقط فى العين أو الشراب.

(٢) التلدد: التلفت يمينا وشمالا تحيرا.

(٣) خليدة: ابنة الشاعر، ما عراك: ما الذى تزل بك، الشئون: الحوادث.

(٤) ضاف: نزل.

(٥) الطارق: الذى يجىء ليلا، الهماهم: الهموم، أقريهما: أطعمها، قلص: جمع قلوص، وهى الناقة الشابة، لواقح: حوامل، القسى: جمع قوس، والمراد بالقسى هنا الشدة، الحول: غير الحوامل.

شم الحوارك جُنَّحًا أعضادها ... صهبا تناسب شدقما وجديلا[1]

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... تشكو إليك مُضَلَّةً وعويلا[2]

من نازح كثرت إليك همومه ... لو يستطيع إلى اللقاء سبيلا[3]

إني حلفت على يمين برة ... لا أكذب اليوم الخليفة قيلا[4]

ما إن اتيت أبا خبيب وافدا ... يوما أريد لبيعتي تبديلا[5]

من نعمة الله لا من حيلتي ... أني أعد له على فضولا[6]

---

(١) شم: من الشمم، وهو الارتفاع، الحوارك: جمع حارك، وهو أعلى الكاهل، جنحا: سريعة من التجنح وهو إسراع الناقة، أعضادها: جمع عضد من المرفق إلى الكتف، صهبا: الصهبة بعير ليس بشديد البياض، الشدقم: من فحول الإبل.

(٢) مضلة: من الضلال، العويل: البكاء بصوت.

(٣) نازح: بعيد عن دياره.

(٤) يمين برة: صادقة لا ينقصها حنث ولا خيانة، ووفى يمينه: صدق فيها.

(٥) أبو خبيب: كنية عبدالله بن الزبير.

(٦) فضول: جمع فضل بمعنى الإحسان والإنعام.

وشَنِئتْ كُلّ منافق مُتَقَلّب ... ترك الزلازل قلبه مدخولا[١]

واهي الأمانة لاتزال قَلوصُه ... بين الخوارج نَهْزة وذميلا[٢]

أخليفة الرحمن إنا معشر ... حنفاء نسجد بكرة وأصيلا[٣]

عرب نرى لله في أموالنا ... حق الزكاة منزلا تنزيلا

إن السعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهي لوعلمت وغولا[٣]

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه ... بالأصبحية قائما مغلولا[٤]

حتى اذا لم يتركوا لعظامه ... لحما ولا لفواده معقولا[٥]

جاءوا بصكهم وأحدب أسأرت ... منه السياط يراعة إجفيلا[٦]

أخذوا حمولته وأصبح قاعداً ... لا يستطيع عن الديار حَويلا

---

(١) شنئت: كرهت، متقلب، أى يغير بيعته بين الحين والحين، الزلازل: الشدائد، مدخول: فاسد.

(٢) القلوص: الناقة الشديدة، نهزة: تدنو وتقترب، الذميل: السير اللين.

(٣) السعاة: الولاة، الغولا: الداهية أى الأمر العظيم.

(٤) العريف: رئيس القبيلة والمتحدث بالإنابة عنهم، الحيزوم: الوسط، الأصبحية: السياط، مغلولا: مقيدا.

(٥) المعقول: العقل.

(٦) الصك: الصحيفة الخاصة بالصدقات والضرائب ، الأُحدب: المتقوس الظهر، اليراعة: الجبان وكذلك الإجفيل.

يدعــو أمــير المؤمنــين ودونــه	خَــرْق تجريــه الريــاح ذيــولا[1]
كهداهــد كســر الرمــاة جناحــه	يدعــو بقارعــة الطريــق هديــلا[2]
أخليفــة الرحمــن إن عشــيرتى	أمْسى ســوامهم عزيــن فُلــولا[3]
قــوم علــى الاســلام لمــا يمنعــوا	مــاعونهم ويضيعــوا التهليــلا[4]
قطعــوا اليمامــة يُطــرَدون كــأنهم	قــوم أصــابوا ظــالمين - قتيــلا
وأتــاهم يحيــى فشــد عليهــم	عقــدا يــراه المســلمون ثقيــلا
فــتركت قومــى يقســمون أمورهــم	أإليــك أم يــتربصون قليــلا؟[5]
أنــت الخليفــة عدلــه ونوالــه	وإذا أردت لظــالم تنكيــلا[6]
فــادفع مظــالم عيّــلت أبناءنــا	عنــا وأنقــذ شِــلْونا المــأكولا[7]

---

(١) الخرق: الفقر.

(٢) الهداهد: الحمام الكثير، الهدهدة أى التصويت والبكاء وقيل تصغير هدهد، قارعة الطريق أعلاه. هديل: صوت الحمام.

(٣) السوام: الإبل ترعى، عزين: متفرقة هزيلة.

(٤) الماعون: الزكاة، التهليل: هو قول لا إله الا الله.

(٥) يقسمون: يتشاورون، يتربصون: ينتظرون.

(٦) تنكيلا: صنيعا يحذر غير هؤلاء للعمال من أن يفعلوا ما فعلوه.

(٧) ادفع: ارفع، عيلت من التعليل وهو سوء الغذاء، الشلو: العضو ، والجسد من كل شيء.

إن الذيـــن أمرتهـــم أن يعدلـــوا لم يفعلـــوا ممـــا أمـــرت فتيـــلا[1]

أخـذوا الكـرام مـن العشـار ظلامـة منـا وتكتـب للأمـر أفيـلا[2]

فلئـن سـلمت لأدعـون بطعنـة تـدع الفرائـض بالشـريف قليـلا[3]

---

(١) إن الذين أمرتهم: يقصد عمال الزكاة، الفتيل: مايكون في شق النواة.

(٢) العشار: اسم يقع على النوق حتى ينتج بعضها، الأفيل من الإبل. الصغير.

(٣) الفرائض: جمع فريضة، وهي من الإبل والغنم والبقر مابلغ عدد الزكاة، أي النصاب، الشريف: المكان الذي ينزل به بنو نمير قبيلة الشاعر.

* الرؤية النقدية :

من مظاهر التطور والتجديد فى أغراض الشعر فى العصر الأموى موضوع " شكوى العمال " .. فلقد ارتفع صوت المال فى القصيدة الأموية ، واحتل جوانب غير قليلة منها ، فقد كان أساسياً فى حياة الناس ، فطبيعى أن يكون أساسياً فى فنهم وشعرهم .. أليس دعامة هامة من دعائم الحياة ؟.. فلم لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفنى ؟.. إنه يستقر فى قاع الحياة وقاع الشعر ، لأن الشعر إنما هو تعبير عن الحياة .

ولم يعبر الشعر الأموى عن المال والمادة والحياة الاقتصادية من الوجهة العامة فحسب ، وإنما عبر أيضاً عن النظم الاقتصادية الموضوعة ، وكان قد دخلها اضطراب كثير فى هذا العصر ، فمن جهة كثرت الإقطاعات للولاة والعمال وزعماء العرب ، ومن جهة فرض على الناس كثير من الضرائب الاستثنائية ، وكان الولاة يتفننون فى ذلك ، فتارة تُفرض باسم أجور عمال الخراج ، وتارة تُفرض باسم نفقات العقود وسك النقود وغير ذلك [١] .

فما يحكيه الطبرى فى تاريخه أن الحجاج حين صرف المهلب عن الأهواز إلى خراسان كل عليه لبيت المال ألف ألف درهم ، ولما عزل يزيد بن المهلب عن خراسان كان عليه لبيت المال ستة آلاف درهم .

---

(١) انظر : التطور والتجديد فى الشعر الأموى : للدكتور شوقى ضيف ص ١٢٣ ، ١٢٤ الطبعة السادسة - ١٩٧٧ - دار المعارف .

وتعد لامية الراعى النميرى من الوثائق الشعرية المهمة التى تدين حكم بنى أمية بالظلم الفاحش الذى كان يحدث فى نجد وبين البدو من العرب، بل وتعداه إلى ريف العراق، ويكفى أن نشير إلى أن الموالى اضطروا إزاء هذا الظلم والعسف أن يهاجروا من ريف العراق إلى المدن مما جعل الخراج ينقص فى عهد الحجاج من ١٢٠ مليون درهم الى ٢٥ مليونا.

وهذه القصيدة تشير إلى فساد الحكم الأموى الذى قوض المبدأ الاسلامى القائل بأن الخلافة شورى بين المسلمين وليست وراثية، ويثبت كيف أن الشعر صدى للظروف الاقتصادية ومعالجة أُمينة للواقع من خلال تجربة شعرية عاشها الشاعر وقومه، مع طرح الشاعر للحل الأمثل الذى تزال به العقبات التى شوهت الواقع وجعلته بهذه الصورة القاسية الأليمة.

وبعد فإن ثمة ملاحظات على لاميه الراعى النميرى نوجزها كالتالى:

(١) تنتمى هذه القصيدة إلى موضوع جديد تطور فى العصر الأموى وهو شكوى العمال"

(٢) تبدو بعض مظاهر التجديد فى مطلع القصيدة [illegible] العصر الأموى من خلال لامية الراعى، فهو لم يقف على [illegible] ولم يبك الدمن والآثار وإنما كان مطلعه مناسبا لمقامه، فجعله مطلعا يحكى الأرق والألم والهم الذى ألم بالشاعر وجعله لاينام، حتى إن الهم قد ضافه فى وساده.

(٣) أن رءوية الشاعر لواقعه تميزت بالجرأة والموضوعية التى جعلت توسله لدى عبد الملك بن مروان يضيع هباء ويرجأ إلى العام التالى:

فتركت قومى يقسمون أمورهم ... أإليك أم يتربصون قليلا؟

فيجيبه عبد الملك: بل يتربصون قليلا، ولقد وجه الراعى اللوم والاتهام إلى عبد الملك بن مروان وعماله على الزكاة مباشرة حين قال:

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا

فقد كانوا يأخذون كرام الإبل منا ويخصون بها أنفسهم ويستبدلونها بصغار الإبل الهزيلة لبيت المال.

(٤) يلاحظ على القصيدة أنها تخلو -أو تكاد- من الصور الشعرية الجزئية لأنها فى مجملها لوحة شعرية كلية تصور الظلم بريشة شاعر فنان عاش الظلم مع قومه حتى أفرخ الهم بعض الصور الاستعارية التى تصور حالة الأرق التى كان يعيشها مثل قوله:

أخليد إن أباك ضاف وساده ... همان باتا جنبه ودخيلا

فقد جسد الهم فى صورة ضيف يزوره ليلا مما خلع على الصور الاستعارية الحركة والنماء.

وفى صورة أخرى جعل الهم الضيف الذى يقرى.

وهناك الصورة الطريفة التى رسمها الشاعر لرئيس القبيلة الذى لم يترك عمال الزكاة لعظامه لحما، ولا لفؤاده معقولا، فتلك صورة كنائية تعبر عن مبلغ تنكيلهم به حتى يذعن لمطالبهم من أجل كل ذلك جاء صوت الشاعر وضميره أقل تعقلا من عقله فقد كان مدفوعا بأثر الظلم الذى لا يطاق، والذى بالغ فيه الأمويون مع بنى نمير قبيلة الشاعر.

رسالة فى ليلة التنفيذ

للشاعر هاشم الرفاعى

فى بلدة "أنشاص" من محافظة الشرقية العظيمة ولد السيد جامع هاشم الرفاعى وقد اشتهر باسم جده الذى كان من أعلام التصوف بمصر عام ١٩٣٥، وقد جاء هاشم الرفاعى مع النهضة العربية على ميعاد وكأنه ظاهرة من ظواهرها المضيئة، وكان أول ما صك مسمعه يوم مولده أصداء ثورة الشباب فى سبيل الدستور وهى إحدى الانتفاضات الثائرة ضد الاحتلال وأعوانه، وكان السيد محمد جامع الصغير والد الشاعر هاشم الرفاعى عالما متصوفا يتخذ من كتاب الله وحديث رسول الله وفقه السنة دعامة للتصوف وشرعة للحياة، وكان الطفل الصغير هاشم الرفاعى قد أستوى على قدميه وتفتح وجدانه وعقله على ما يسمع ويرى وهو فى حجر أبيه الشيخ أو وهو جالس الى جواره فى مجالس العلم للعبادة والتوجيه.

كان ينفلت أحيانا من مجلس أبيه فى ليالى رمضان ليقضى جانبا كبيرا من الليل وهو يسمع إلى شاعر الربابة فى أحد المقاهى ينشد ملحمة أبى زيد الهلالى وقد حفظها على صغر سنه ثم بدأت مرخلة جديدة فى حياته بدخوله المعهد الدينى بالزقازيق عام ١٩٤٧، وبدأ يقول الشعر وهو فى الثالثة عشرة من عمره، كانت محاولات لم تلبث أن نضجت واستقامت مبنى ومعنى وظهر شعره فى الصحف يحمل من عناصر التجربة النفسية والشعور القومى ومن حصيلة الثروة اللغوية والبيانية ما يسبق سنة الصغيرة بمراحل بعيدة، لقد كانت الفترة التى قضاها فى المعهد الدينى حتى عام ١٩٥٥ ذات أثر كبير فى إبراز معالم شخصيته.

ويلتحق هاشم الرفاعى بعد إتمام دراسته الثانوية بالمعهد الدينى بكلية دار العلوم عام ١٩٥٥، كان الشاعر الشاب يجتاز أخصب مراحل حياته ويضع قدميه على أول مدارج القمة وهو أوشك أو يكاد يقترب من العقد الثالث من عمره، وشهدت له كل المنتديات الأدبية فى القاهرة ودمشق بأصالته وعمق شاعريته ولم تمهل يد القدر الشاعر الموهوب فاغتالته يد آثمة فى الثامن من تموز "يوليو" سنة ١٩٥٩ ومات فى ريعان الشباب عن عمر يناهز الرابعة والعشرين.

وكتب فى كل أغراض الشعر تقريبا: فى الفكاهة والنقد الاجتماعى والهجاء، والشعر الدينى، وحب الوطن.

وهذه إحدى قصائده الرائعة، نسوقها إليك من ديوانه الذى يحمل اسمه، يتحدث فيها عن شهداء الحرية الذين يتساقطون فى كل مكان من أجل كلمة الحق.

١/٤٨

رسالة في ليلة التنفيذ(*)

أبتاهُ، ماذا قد يخطُّ بناني والحبلُ والجلادُ منتظرانِ
هذا الكتاب إليكَ من زنزانةٍ مقرورةٍ(١) صخريَّةِ الجدران
لم تبقَ إلا ليلةٌ أحيا بها وأحسُّ أن ظلامها أكفاني
ستمرُّ يا أبتاهُ - لستُ أشكُّ في هذا - وتحملُ بعدها جُثماني

* . * . * . *

الليلُ من حولي هدوءٌ قاتلٌ والذكرياتُ تمورُ في وجداني
ويهدُّني ألمي، فأنشدُ راحتي في بضعِ آياتٍ من القرآن
والنفسُ بين جوانحي شفافةٌ دبَّ الخشوع بها فهزَّ كياني
قد عشتُ أومنُ بالإلهِ ولم أذقْ إلا أخيراً لذةَ الإيمان
شكراً لهم، أنا لا أريدُ طعامَهم فليرفعوه، فلستُ بالجوعان
هذا الطعامُ المرُّ ما صنعتْه لي أمي، ولا وضعوه فوقَ خُوان(٢)
كلا، ولم يشهدْه يا أبتي معي أخوانِ لي جاءاه يستبقان
مَدُّوا إليَّ به يداً مصبوغةً بدمي، وهذي غاية الإحسان

(*) كتبت هذه القصيدة في آذار-مارس-١٩٥٥ ولها بقية طويلة في ديوان «جراح مصر» للشاعر. وكان ناشر المجموعة الأولى من شعر الرفاعي (محمد كامل حته) قد وضع لها مقدمة يوحي بها أن القصيدة كتبت سنة ١٩٥٨ وأنها قيلت بمناسبة [أحداث العراق زمن عبد الكريم قاسم. . ولكن أصول هذه القصيدة توضح أن كتابتها كانت سنة ١٩٥٥.

(١) مقرورة : باردة.

(٢) الخوان : بضم الخاء وكسرها: منضدة الطعام.

والصمتُ يقطعُهُ رنينُ سلاسلٍ ... عبثت بهنّ أصابعُ السّجان
ما بين آونةٍ تمُرُّ.. وأختها ... يرنو إليَّ بمقلتيْ شيطان
من كوّةٍ بالبابِ يرقبُ صيدهُ ... ويعودُ في أمنٍ إلى الدوران
أنا لا أحسُّ بأيِّ حقدٍ نحوهُ ... ماذا جنى؟ فتمسّه أضغاني
هو طيّبُ الأخلاقِ مثلُكَ يا أبي ... لم يبدُ في ظمأ إلى العدوان
لكنّه إنْ نامَ عني لحظةً ... ذاقَ العيالُ مرارةَ الحرمان
فلربما وهو المروَّعُ سَحنةً[1] ... لو كان مثلي شاعراً لرثاني
أو عاد - من يدري ؟ - إلى أولادهِ ... يوماً وذُكِّر صورتي لبكاني
وعلى الجدارِ الصُّلبِ نافذةٌ بها ... معنى الحياةِ غليظةَ القضبان
قد طالما شارفتُها[2] متأملاً ... في الثائرين على الأسى اليقظان
فأرى وجوماً كالضبابِ مصوِّراً ... ما في قلوبِ الناس من غَليان
نفسُ الشعورِ لدى الجميعِ وإن همُ ... كتموا، وكانَ الموتُ في إعلاني
ويدورُ همسٌ في الجوانح ما الذي ... بالثورة الحمقاءِ قد أغراني؟
أوَ لَمْ يكنْ خيراً لنفسيَ أنْ أرى ... مثلَ الجميع أسيرُ في إذعان؟
ما ضرّني لو قد سكتُّ، وكلمّا ... غلبَ الأسى بالغتُّ في الكتمان
هذا دمي سيلٌ، يجري مطفئاً ... ما ثار في جنبيَّ من نيران
وفؤاديَ الموّارُ في نبضاتِهِ ... سيكفُّ في غده عنِ الخفقان[3]
والظلمُ باقٍ، لنْ يحطِّمَ قيدَه ... موْتي، ولن يودي به قرباني[4]
ويسيرُ ركبُ البغي ليسَ يضيرُهُ ... شاةٌ إذا اجتُثّتْ من القُطعان

* . * . * . *

---

(١) السحنة: بسكون الحاء وفتحها: الهيئة، اللون.
(٢) شارف المكان: علاه. شارف الشيء: اطلع عليه من فوق، قاربه ودنا منه.
(٣) الموار : السريع.
(٤) يودي: يزيل ويذهب، قرباني: تضحيتي.

هذا حديثُ النفسِ حين تشقُّ عن ... بَشَرِيَّتي.. وتمورُ بعد ثوان

وتقولُ لي: إنَّ الحياةَ لِغايةٍ ... أسمى من التصفيقِ للطغيان

أنفاسُكَ الحرّى وإن هيَ أُخمدت ... ستظلُّ تغمرُ أفقَهُم بدخان

وقروحُ جسمِكَ وهو تحتَ سياطِهِم ... قسماتُ صبحٍ يتقيهِ الجاني[1]

دمعُ السجينِ هناكَ في أغلالِهِ ... ودمُ الشهيدِ هنا سيلتقيان

حتى إذا ما أُفعِمَتْ بهما الرُّبا ... لمْ يبقَ غيرُ تمرُّدِ الفيضان

ومِنَ العواصفِ ما يكونُ هبوبُها ... بعدَ الهدوءِ وراحةِ الرُّبان

إنَّ احتدامَ النارِ في جوفِ الثرى ... أمرٌ يثيرُ حفيظةَ البركان

وتتابُعُ القطرات ينزل بعده ... سيلٌ يليه تدفُّقُ الطوفان

فيموج.. يقتلع الطغاة مزمجراً ... أقوى من الجبروت والسلطان

أنا لست أدري، هل ستُذكَر قصتي ... أم سوف يعروها دجى النسيان؟

أو أنني سأكون في تاريخنا ... متآمراً أم هادمَ الأوثان؟

كل الذي أدريه أن تجرُّعي ... كأسَ المذلةِ ليس في إمكاني

لو لم أكن في ثورتي متطلِّباً ... غيرَ الضياءِ لأمّتي لكفاني

أهوى الحياة كريمةً لا قيدَ، لا ... إرهابَ، لا استخفافَ بالإنسانِ

فإذا سقطتُ سقطتُ أحملُ عزتي ... يغلي دمُ الأحرارِ في شرياني

* . * . * . *

أبتاهُ، إنْ طلعَ الصباحُ على الدُّنى ... وأضاءَ نورُ الشمسِ كلَّ مكان[2]

واستقبلَ العصفورُ بين غصونِهِ ... يوماً جديداً مشرقَ الألوان

وسمعتَ أنغامَ التفاؤلِ ثرَّةً ... تجري على فمِ بائعِ الألبان[3]

وأتى يدق ـ كما تعوَّد ـ بابَنا ... سيدقُّ بابَ السجن جلّادان!

---

(١) القروح : الجروح جمع قرح.

(٢) الدنى : جمع الدنيا.

(٣) ثرة : كثيرة.

وأكون بعد هنيهةٍ متأرجحاً | في الحبلِ مشدوداً إلى العيدان
لِيَكُنْ عزاؤك أنَّ هذا الحبلَ ما | صنعْتهُ في هذي الربوعِ يدان
نسجوهُ في بلدٍ يَشِعُّ حضارةً | وتُضاءُ منه مشاعلُ العرفان
أو هكذا زعموا، وجيء بِهِ إلى | بلدي الجريحِ على يد الأعوان
أنا لا أريدُكَ أنْ تعيشَ محطّماً | في زحمةِ الآلام والأشجان
إنَّ ابنك المصفودَ في أغلاله | قد سيقَ نحو الموتِ غير مدان
فاذكرْ حكاياتٍ بأيامِ الصبا | قد قُلْتَها لي عن هَوى الأوطانِ
وإذا سمعتَ نشيج أمي في الدجى | تبكي شباباً ضاع في الريعان[1]
وتُكَتِّم الحسراتِ في أعماقها | ألماً تواريه عن الجيران
فاطلب إليها الصفح عني، إنني | لا ابتغي منها سوى الغفران
ما زال في سمعي رنينُ حديثها | ومقالِها في رحمة وحنان
أبُنَيَّ : إني قد غدوتُ عليلةً | لم يبق لي جَلَدٌ على الأحزان
فأذِقْ فؤادي فرحةً بالبحث عن | بِنْتِ الحلال ودَعْكَ من عصياني
كانت لها أمينةٌ.. ربانيةٌ | يا حُسْنَ آمالٍ لها وأمان!
غزلتْ خيوطَ السعد مخضلا ولم | يكن انتقاضُ الغزلِ في الحُسبان[2]
والآنَ لا أدري بأيِّ جوانح | ستبيتُ بعدي أم بأي جَنان[3].

* . * . * . *

هذا الذي سطّرتُهُ لكَ يا أبي | بعض الذي يجري بفكرٍ عان
لكنْ إذا انتصر الضياءُ ومُزِّقتْ | بِيَدِ الجموع شريعةُ القُرصان[4]
فلسوف يذكرني ويُكْبِرُ همّتي | مَنْ كان في بلدي حليفَ هوان
وإلى لقاء تحت ظل عدالةٍ | قدسية الأحكام والميزان

---

(1) النشيج : غصة البكاء.
(2) المخضل : الناعم.
(3) الجوانح : الضلوع الجنان: القلب.
(4) القرصان : لصوص البحر.

القاسم بن يوسف الكاتب

يرثى الامام الحسين

سلم على قبر الحسين وقل له ... صلى الإله عليك من قبر[1]

وسقاك صوب الغاديات ولا ... زالت عليك روائح تسرى

يا ابن النبى وخير أمته ... بعد النبى مقاذى نُحُر

أصبحت مغتربا بمختلف ... للرامسات وواكف القطر

ونأيت عن دار الأحبة ... واستوطنت دار البعد والقفر

بل جنة الفردوس تسكنها ... جار النبى ورهطه الزُّهْر

ماذا تحمل قاتلوك من ... الآصار والأعباء والوزر

خرجوا من الاسلام ضاحية ... واستبدلوا بدلا من الكفر

كتبوا إليك وأُرسلوا رسلا ... تترى بما وعدوا من النصر

أعطوك بيعتهم وموثقهم ... بالله بين الركن والحجر

حتى إذا أَصْرحتَ دعوتهم ... طلبا لوجه الله والأجر

---

(١) ادب الطف: ص ٣٣٢

شاعرنا هو ابو محمد القاسم بن يوسف القاسم بن صبيح القبطى الأصل، مولى بنى عجل من أهل الكوفة، ويروى أنه كان أسن من أخيه أبى جعفر أحمد بن يوسف، وأكثر شعرا منه وأفصح فى شعره وأشعر فى فنه الذى أعجبه، وقد عاش فى أواخر القرن الثانى للهجرة وأوائل القرن الثالث.

وخرجت محتسبا لتحيى ما ... قد مات من سنن الهدى الدثر

ختروا مواثقهم وعهدهم ... لا يرهبون عواقب الختر

ركنوا إلى الدنيا فلم يئلوا ... فيها إلى حظ ولا وفر

جعلوا سمية منكم خلفا ... وبنى أمية حاملى الإصر

قتلوك واتخذوهم سترا ... مادون علم الله من ستر

فأبادهم سيف الفناء بأ ... يدى الظالمين بذلك الوتر

يجدون بالمرصاد ربهم ... بعدا لأهل النكث والغدر

أبنى سمية أنتم نفر ... ولد البغايا غير ما نكر

قلتم عبيد لانقربه ... ونقر بالعيّاب والعهد

منكم بشط الزاب مجتزر ... للفاسلات العبس والبسر

ولكم مصارع مثل مصرعه ... ماحن ذو وكر إلى وكر

وبنو أميه سوموا تلفا ... بالمشرفية والقنا السمر

هشموا بها شمة وحاق بهم ... ماقدموا من سيئ المكر

ولهم فلا فوت ولاعجل ... أمثالهم فى غابر الدهر

فى محكمات الذكر لعنهم ... فيها روى العلماء من ذكر

منهم معاوية اللعين ومروان ... الضنين وشارب الخمر

والأبتر السهمى رابعهم ... عمرو وكل الشر فى عمرو

إنى لارجو أن تنالهم ... منى يد تشفى جوى الصدر

بالقائم المهدى إن عاجلا ... أو آجلا إن مد فى العمر

أو ينقضى من دونه أجلى ... فالله أولى فيه بالغدر

ولكل عبد عيب نيته … فى الخير مسطور وفى الشر

وماتنقضى حسرات ذى ورع … ودم الحسين على الثرى يجرى

ودماء إخوته وشيعته … مستلحمون بجانب النهر

خذلوا وقل هناك ناصرهم … فاستعصموا بالله والصبر

مستقدمين على بصائرهم … لا ينكصون لروعة الذعر

يأبون أن يعطوا الدنية أو … يرضوا مهادنة على قسر

البر زخرهم وكنزهم … خير الكنوز وأفضل الذخر

آل الرسول وسر أمرته … والطاهرون لطيب طهر

حلوا من الشرف اليفاع على … علياء بين الغفر والنسر

فابك الحسين بعضمر فرح … وابك الحسين بمدمع غزر

حق البكاء له وحق له … حسن الثناء وطيّب النشْر

لايبلغ المثنى يداه ولا … يحو المديح مقاله المطرى

مأوى القيامى والأرامل … والأضياف فى اللزبات والعسر

لامانعا حق الصديق ولا … يخفى عليه مبيت ذى الفقر

كم سائل أعطى وذى عدم … أغنى وعان فك مِنْ أَسْر

وتخال فى الظلماء سنته … قمرا توسط ليله البدر

لاتنطق العَوْراء حضرته … عف يعاف مقالة الهجر

ومبرأ من كل فاحشة … بَرّ السريرة طاهر الجهْر

قصيدة العيد

لأبى الطيب المتنبى

يعد هجاء المتنبى عدة كفاحه التى بها يدفع الضيم، ويرد السهام إلى صدر راميها.

والحق يقال: إن المتنبى ماعرف الهجاء كوسيلة للتكسب شأن بشار ودعبل وابن الرومى، كما أنه لم يصطنعه آله لإظهار ما انطوى عليه من حقد وضغينة، فهو أرفع من أن يتخذه وسيلة للعيش، وهو أُرحب من ان يكون منغلقا على بغضاء متأصلة فيه.

والقصيدة التى تناولها الآن بالدرس الفنى هى واحدة من هجائياته لكافور الإخشيدى، على أنه ينبغى التنبيه إلى أن هجاء المتنبى لكافور لم يكن من أجل نوال المال، ولكنه هجاء وليد موقف، وقد عودنا المتنبى على المواقف الجريئة التى لا يقفها إلا هو، فقد استغله وأطراه ، ومناه الوعود الكاذبة، ولقد اتسم هجاء المتنبى بجملة من المظاهر الفنية منها الإقذاع، وفخش الألفاظ والمعانى، وعنصر القوة، والتشاؤم، والنقمة والاشمئزاز، ومنها التصوير السخرى الحاد، ثم الهجاء الذى تغلفه الحكمة، وهو يغلب على أكثر إنتاج الشاعر فى شعر الهجاء.

---

(١) انظر ديوان أبى الطب المتنبى بشرح البرقوقى ص ١٣٩، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٨٦.

والآن نورد لك النص ثم ندلفه بتحليل نقدى شامل:

النص

عيد بأية حال عدت ياعيد ... بما مضى أم بأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم ... فليت دونك بيدا دونها بيد[1]

لولا العلى لم تجُب بى ما أجوب بها ... وجناء حَرف ولا جَرداءُ قَيْدود[2]

وكان أطيب من سَيْفى مُضاجعةً ... أشباه رونقه الغيدُ الأَماليد[3]

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى ... شيئا تُتيمه عَين ولاجيد[4]

يا ساقِيَيَّ أخَمْرٌ فى كئوسكما ... أم فى كئوسكما هَمٌّ وتسهيد

أصخرة أنا؟ مالى لا تحركنى ... هذى المدام ولاهذى الأغاريد[5]

---

(١) البيداء: الفلاة، جمعها بيد سميت بذلك لأنها تبيد سالكها.

(٢) جاب المكان: أى قطعه، وجناء: ناقة أصيلة، الجرداء. الفرس القصير الشعر، القيدود: الطويلة.

(٣) الغيد: جمع غيداء: وهى المتثنية لينا، الأماليد: الناعمات المستويات القامات.

(٤) تيمه الحب: عبده وذلله، والجيد: العنق.

(٥) المدام: الخمر، والأغاريد: الأغانى.

إذا أردت كُميتَ اللون صافية ... وجدتها وحبيب النفس مفقود[1]

ماذا لقيت من الدنيا وأعْجَبُه ... أنّي بما أنا باكٍ منه محسود

أمسيت أروح مثرٍ خازنا ويدا ... أنا الغنى وأموالى المواعيد[2]

اني نزلت بكذّابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدى وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم ... إلا وفى يده من نَتْنِها عود

من كل رَخْو وِكاء البطن منفتق ... لا فى الرحال ولا النسوان معدود[3]

أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله فى مصر تمهيد[4]

صار الخصى إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود[5]

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بَشِمْن وماتفنى العناقيد[6]

العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه فى ثياب الحر مولود

لاتشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

---

(١) الكميت: الأحمر فيه سواد، يوصف به المذكر والمؤنث.

(٢) أروح: من الراحة، والمثرى: الغنى.

(٣) الوكاء: ماتشد به القِرْبة، ومعنى رخو وكاء البطن: أنه ضراط فساء، لايوكى على مافى بطنه من الريح، والمنفتق الواسع الجلد لكثرة لحمه.

(٤) اغتاله: قتله غيلة، وأخذه على غفلة، يشير إلى مافعلة كافور بالإخشيد وقتله إياه واستقلاله بملك مصر بعد.

(٥) الآبق: الهارب من سيده، ومستعد: مذلل، ومعبود: مطاع.

(٦) النواطير: جمع ناطور وهو حافظ الزرع والتمر والكرْم، والمراد به هنا سادة مصر وأشرافها، والثعالب هنا: العبيد، والعناقيد: الأموال.

نقاد

أحيا

ما كنت أحسبني إلى زمن	يسيء بي فيه كلب وهو محمود
ولاتوهمت أن الناس قد فقدوا	وأن مثل أبي البيضاء موجود
وأن ذا الأسودَ المثقوب مشفره	تطيعه ذي العضاريطُ الرعاريد[(١)]
جوعان يأكل من زادى ويُمسِكُني	لكي يقال عظيم القدر مقصود
إنّ امرأً أَمَةٌ حُبلى تُدبِّرُه	لمستضام سخين العين مفئود[(٢)]
وَيلُمِّها خطة وَيلُم قابِلها	لمثلها خُلِق المَهْرِيَّةُ القود[(٣)]
وعندها لذ طَعْم الموت شاربُه	إن المنية عند الذل قنديد[(٤)]
من علم الأسود المخصي مَكْرِمة	أقومه البيض آباؤه الصيد[(٥)]
أم أُذْنُه في يد النخاس دامية	أم قَدْره وهو بالفلسين مردود[(٦)]
أولى اللئام كويفير بمعذرة	في كل لوم وبعض العذر تفنيد[(٧)]
وذاك أن الفحول البيض عاجزة	عن الجميل فكيف الخِصْيَة السود[(٨)]

(١) العضاريط: جمع عضروط، وهو الذي يخدم الناس بطعام بطنه، والرعديد: الجبان.

(٢) المستضام: الذي أدركه الضيم وهو الظلم، ورجل مفئود: جبان ضعيف الفؤاد والمفئود الذي لا فؤاد له، وسخين العين: محزون.

(٣) أو يلمها: كلمة تقال عند التعجب وأصلها: وي لامها، والخطة الامر والشأن، والمهرية: المنسوبة إلى مهرة بن حيدان، بطن من قضاعة تنسب إليه الإبل، والقود: الطوال الظهور والأعناق.

(٤) القنديد: عصارة قصب السكر إذ أجمد.

(٥) البيض هنا: الكرام.

(٦) النخاس: بياع الرقيق، والفلس: قطعة مضروبة من النحاس يتعامل بها.

(٧) التفنيد: اللوم وتضعيف الرأي، وكويفير: تصغير كافور تحقيرا له.

(٨) الخصية: جمع خصي.

أما الكنى والألقاب التى خلعها الشاعر على أشهر مهجويه فكثيرة وأهمها. كويفير - وأبو النتن -وأبو البيضاء والخنثى - والأسيود - والخنزير. والخصى والنوبى.

ويلاحظ أن هجاء المتنبى فى مصر جاء أجود من مدائحه فيها،وذلك عندى لأن الهجاء غرض شعرى يحتاج إلى الصياغة الفنية أكثر من حاجته إلى الحق، وإذا كان القول المأثور : إن أبرع الهجائين أشدهم كذبا "فإن أبا الطيب نحسبه كان كذلك فى هجائه لكافور، حيث بلغ غاية الإتقان والصدق الفنى.

وبدا كافور فى هجاء المتنبى له كالدمية أوقل هو كالأضحوكة فنجده قد عيره بخَلْقه فهو أسود، قبيح المنظر، ضخم الجثة مشقوق المشفر، غليظ القدمين، خصى.

ولقد عيره بأصله : فأذنه دامية فى يد النخاس، وقَدْره بالفلسين مردود.

ترى ما سر هذه الثنائية المتضادة فى المتنبى عندما مدح كافورا ثم هجاه؟

الحق أن الناس كانوا قد أعجبوا بأخلاق كافور، ومهارته فى السياسة، وحنكته فى تدبير شئون الدولة وذلك عندما قرأوا مدح المتنبى فيه، ثم هزأوا منه عندما هجاه المتنبى!

ترى هل بلغ هجاء المتنبى لسيد مصر مداه وحقق غايته؟

الجواب لا: لماذا ؟لأن أصداء المديح كانت لاتزال تتجاوب في الآذان، وليس من السهل على الشاعر أن يتلاعب بأفهام الناس ويدفعها نحو الباطل بعد أن عُوِّدت الحق، وإذا كان يحلو للبعض أنّ يقول إن المتنبى قد أساء إلى نفسه بهجائه لكافور بقدر ما أساء إلى كافور نفسه، فإن القصيدة وغيرها مما قال المتنبى فى هجاء كافور وصور خشوع المصريين وخضوعهم لهذا السيد الذى كان بالأمس القريب يُجَر فى الأسواق ويباع ويهان والشىء الملفت للنظر أنه لولاهجائيات التنبى لكافور لما عدت أبياته المتفرقة فى ثنايا ديوانه من الهجاء المرموق فى شيء.

ويستهل الشاعر قصيدته فى العيد بقوله:

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد

فهو يخاطب العيد فيقول: بأية حال عدت علىّ أبالحال التى عهدتها من قبل أم حدث فيك أمر جديد، إنَّ لهجة الشاعر فى مفتتح القصيدة قوية،ولكن يغلب عليها الأسى وتغلفها الأحزان ويشوبها الكُـرْه.

ومن هم أحبته الذين يحن إليهم ؟

أما الأحبة فالبيداء درنهم ... فليت دونك بيدا دونها بيد

لقد وصف النقاد شعر المتنبى فى مصر بجمال الرمز، أى بالإشارة إلى سيد مصر، ترى إذا كان للشاعر أحبة فمن هم وأين يكونون ؟ إن أحبة الشاعر فيما نرى إن هى إلا آماله التى لم يستطيع أن يحققها، انظر إلى قوله:

لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها

وجناء حرف ولاجرداء قيدود

وكان أطيبه من سيفي معانقة

أشباه رونقه الغيد الأماليد

فهو لولا طلب العلى لم يفارق أحبته ولم تقطع به ناقته ولافرسه مايكلفها قطعه من الفلوات.

وإذا ما مضينا مع المتنبي إلى قوله:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئا تتيمه عين ولا جيد

يا ساقِيَيَّ أخَمْرٌ في كؤوسكما

أم في كؤوسكما هم وتسهيد

أصخرة أنا ؟ مالي لا تحركني

هذي المدام ولا هذي الأغاريد

إذا أردت كُمَيتَ اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

فإننا سنجد أنفسنا أمام أجمل أبيات في شعر المتنبي، حيث إننا سنجدنا أمام صفاء وجداني خالص.

إنَّ الدهر قد جرد قلبه عن هوى العيون والأجياد لما توارد عليه من نوائبه فتفرغ عن الغزل واللهو إلى الجِد والجهاد، ويقول الشاعر لساقييه:

أخمرما تسقيانني أم همّ وتسهيد، أى أن مايشربه لايزيده إلا هما وسهرا، إذْ أن قلبه مملوء بالهموم ولاموضع فيه للسرور، ثم تراه يتعجب من حاله كيف أنَّ الخمر والغناء لايطربانه ولايؤثران فيه، ثم إنه إذا طلب الخمر وحدها وَجَدَها، وإذا طلب الحبيب لم يجده، معنى ذلك أن شرب الخمر لايطيب له إلا مع الحبيب، وحبيبه بعيد عنه.

ويتمادى الشاعر فى إظهار ماتطويه نفسه من حزن وألم فيقول: إنه يشكو شده مالقيه من نوازل الدنيا وأحوالها، ثم يقول: وأعجب مالقيته من الدنيا أنى محسود بما أننا شاك منه يعنى تقربه من كافور

إنه يريد أن يقول: إن الشعراء يحسدونه عليه وهو علة شكواه.

لقد صار غنيا، ولكن خازنه ويداه مستريحتان من نقل المال وحفظه ؛ لأن أمواله مواعيد كافور، وهى لاتحتاج إلى أن تقبضها يد أو يحفظها خازن.

بعد هذه التقدمة الرائعة يصل المتنبى إلى كافور وأصحابه فيهجوهم ناعتا إياهم بالكذب والغدر والإخلاف بالوعد:

مايقبض الموت نفسا من نفوسهم
إلا وفى يده من نتنها عود

ثم يقول مصورا حالة مصر آنذاك:

أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيد

صار الخَصِىُّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

العبد ليس لحرٍ صالح بأخ ... لو أنه فى ثياب الحر مولود

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إنّ العبيد لأنجاسٌ مناكيد

يعرض الشاعر هنا بقتل الأسود لسيده واستقلاله بالملك بعده فيتساءل قائلا: أكلما أهلك عبد السوء سيده مهد له أهل مصر الطاعة وملكوه عليهم، ثم إن كل عبد هرب من سيده أمسكه كافور عنده وأحسن إليه لأنه نظيره فى الخيانه فهو إمام الآبقين.

لقد غفل سادات مصر عن العبيد فأكثروا من العبث فى أموال الناس حتى أكلوا فوق الشبع، وقوله وما تفنى العناقيد يريد كثرة ما بين أيديهم من أموال البلاد وأنهم كلما أكلوا شيئا أخلف لهم غيره فلا يكفون عن النهم، وقد يكون فى قوله هذا تصوير صادق لحالة مصر فى ذلك الزمان.

والسؤال الآن: لو أن كافورا قد بلغ بالمتنبى حدود آمانيه أكان حظ العبيد من شعر شاعر العروبه هو هذا الحظ الذى قيدناه الآن ؟ اعتقد ذلك.

هذا وقد كانت دالية المتنبى فى هجاء كافور الإخشيدى من أجود ماقال أبو الطيب فى فن الهجاء، سيما من حيث الصياغة والصور الشعرية، وباختصار القول: إن فيها غير دليل على براعة الشاعر.

تفسير سورة الجن

للشيخ سيد قطب

إن هذا التفسير الذى نقدمه لك، هو جزء من رحلة إيمانية عاشها الأستاذ العالم الشيخ سيد قطب مع القرآن الكريم فيما أسماه "فى ظلال القرآن الكريم". وقد وقع اختيارنا من رحلة الظلال على سورة الجن، ويبدو للوهلة الأولى أن سيد قطب يفسر القرآن الكريم، ولكن الحقيقة تقول: إن هذه الرؤى الإيمانية التى عاشها سيد قطب مع القرآن، كانت نتاج تمثل وهضم لكل كتب التفسير، على اختلافها. ثم كانت هذه الأفروزة العظيمة "فى ظلال القرآن".

ويتميز سيد قطب فى تفسيره الذى أسماه بالظلال بأسلوبه البيانى الساحر، فهو كاتب متميز ومفسر ماهر، متمكن من أدوات تفسيره، بسيط فى أسلوبه، محيط بأطراف القضايا التى يطرحها خلال تفسيره.

ولا يتبنى الشيخ الفقيه مذهبا معينا فى التفسير، بل هو يؤكد على الرؤى التى يطمئن إليها القلب ولا ينفيها العقل، وسوف تجده فى القضيةالواحدة يورد أكثر من رواية ثم تجده يقتنع بإحداها فيسلم بها، ويجعلك تسلم معه، وقد نجده يفسر بعض الألفاظ، فيعطيها كل ما تحمله من احتمالات المعنى.

إن سيد قطب يصحبك معه فى رحلة بيانية مشرقة، روحانية فى أسلوب لا يكون إلا لسيد قطب، وقد أثبتنا رحلته البيانية الشائقة مع سورة الجن دون تدخل منا أو تعليق، واكتفينا بما يمكن أن تثيره هذه الرحلة مع سيد قطب داخل قاعات الدرس، أو داخل النفس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا(١) يهدى الى الرشد فئامنا به ولن نشرك بربنا أحدا(٢) وأنه تعلى جد ربنا ما اتخذ صحبه ولا ولدا(٣) وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا(٤) وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا(٥) وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا(٦) وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا(٧) وأنا لمسنا السماء فوجدنها ملئت حرسا شديد وشهبا(٨) وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا(٩) وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا(١٠) وأنا منا الصلحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا(١١) وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا(١٢) وأنا لما سمعنا الهدى ءامنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا(١٣) وأنا منا المسلمون ومنا القسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا(١٤) وأما القسطون فكانوا لجهنم حطبا(١٥) وألو استقموا على الطريقة لأسقينهم ماء غدقا(١٦) لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا(١٧) وأن المسجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا(١٨) وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً(١٩) قل إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحداً(٢٠) قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً(٢١) قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً(٢٢) إلا بلغا من الله ورسلته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً(٢٣) حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً(٢٤) قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً(٢٥) علم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً(٢٦) إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً(٢٧) ليعلم أن قد أبلغوا رسلت ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا(٢٨) ﴾.

هذه السورة تبده الحس -قبل أن ينظر إلى المعانى والحقائق الواردة فيها- بشىء آخر واضح كل الوضوح فيها.... إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع، قوية التنغيم، ظاهرة الرنين، مع صبغة من الحزن فى إيقاعها ومسحة من الأسى فى تنغيمها، وطائف من الشجى فى رنينها. يساند هذه الظاهرة وتساند هذه الظاهرة، ويتناسق معها صور السورة وظلا لها ومشاهدها، ثم روح الإيحاء فيها، وبخاصة فى الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هذا الخطاب الذى يثير العطف على شخص الرسول فى قلب المستمع لهذه السورة عطفا مصحوبا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شىء فى أمر هذه الدعوة إلا البلاغ والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ.

"قل: إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا.. قل: إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ... قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا... قل: إن ادرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا" وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن، وبيانهم الطويل المديد، وهى حقائق ذات ثقل ووزن فى

الحس والتصور والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية فى إيقاع السورة الموسيقى.

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المسحة الغالبة عليها.......

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تبده الحس، إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والايحاءات.

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يجحدونها، ويجادلون فيها أشد الجدل، ويرجمون فى أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة، ويزعمون أحيانا أن محمدا -صلى الله عليه وسلم- يتلقى من الجن مايقوله لهم عنها فتجيء الشهادة من الجن انفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها، ويجادلون فيها، وبتكذيب دعواهم فى استمداد محمد من الجن شيئا، فهالهم وراعهم ومسهم منه مايدهش ويذهل، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ماسمعوا ولا الإجمال فيما عرفوه، ولا الاختصار فيما شعروا، فانطلقوا يحدثون فى روعة المأخوذ ووهلة المشدوه، عن هذا الحادث العظيم، الذى شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ...... وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتما.

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة، وفى نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد، ووضع حقيقة

هذا الخلق المغيب فى موضعها، بلا غلو، ولا اعتساف، فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا فى الأرض، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أوقفر، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض فقال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ... ثم بات آمنا، كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبئون بما يتنبئون، وفيهم من عبد الجن، وجعل بينهم وبين الله نسبا، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة تلد له الملائكة.

والاعتقاد فى الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشيا فى كل جاهلية ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا.

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن فى القديم، ومازال نجد فى الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا، يصفون أى حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة...

وبين الإغراق فى الوهم والإغراق فى الإنكار يقرر الاسلام حقيقة الجن ويصحح التصورات العامة عنهم ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم.

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا: "وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا" ومنهم الضالون والمضلون، ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون: "وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا" ... وهم قابلون للهداية من الضلال مستعدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا: " قل: أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرانا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا" ... وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم، وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم: وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا "وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم" وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا" ... وأنهم لا يعلمون الغيب ولم تعد لهم صلة بالسماء" وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا، وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا "وأنهم لا صهر بينهم وبين الله – سبحانه وتعالى – ولا نسب: وان الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة: " وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا" ...

وهذا الذى ذكر فى هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء فى القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان وهم من الجن وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب: "فلما

قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين [1]..

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله - وهو من الجن - غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم [2].. وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئى للبشر، فى حين أن كيان الإنس مرئى للجن.

هذا بالاضافة إلى ماقرره فى سورة الرحمن عن المادة التى منها كيان الجن والماده التى منها كيان الإنسان فى قوله: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار" .. يعطى صورة عن ذلك الخلق المغيب، ثبت وجوده، وتحدد الكثير من خصائصه، وفى الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير، العالقه بالاذهان عن ذلك الخلق، وتدع تصور المسلم عنه واضحا دقيقا متحررا من الوهم والخرافة، ومن التعسف فى الإنكار الجامح كذلك.

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ماكان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم فى هذا الكون، أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقا، فلا أدرى علام يبنون هذا الإنكار، بصيغة الجزم والقطع، والسخرية من الاعتقاد بوجود، وتسميته خرافة .

---

(١) سورة سبأ. آية : ١٤.

(٢) سورة الأعراف. آية : ٢٧

إلا أنهم عرفوا كل ما فى هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحدا من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم، وإن فى هذه الارض وحدها من الخلائق الحية لكثيرا مما يكشف وجوده يوما بعد يوم، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء فى الأرض وقفت أو ستقف فى يوم من الأيام.

إلا أنهم عرفوا كل القوى المكنونة فى هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها؟ إن أحدا لا يدعى هذه الدعوى، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم، وهى كانت مجهولة بالأمس، والعلماء جادون فى التعرف إلى القوى الكونية، وهم يعلنون فى تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها، إنهم يقفون على حافة المجهول فى هذا الكون، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد.

ألأنهم رأوا كل القوى التى استخدموها، فلم يروا الجن من بينها؟ ولا هذه فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقية علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة، ولكن أحدا منهم لم ير الكهرب قط، وليس فى معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التى يتحدثون عنها.

ففيم اذن هذا الجزم بنفى وجود الجن؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآله بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشىء؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة؟ إن طريقنا فى هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم، لا التبجح بنفى وجود هذا الخلق من الأساس، بلا حجه ولا دليل ومثل هذا الغيب ينبغى تلقى نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته،

وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة، لم تستمد منه. فما يقوله هو كلمة الفصل فى مثل هذا الموضوع.

والسورة التى بين أيدينا - بالإضافة إلى ما سبق - تساهم مساهمة كبيرة فى إنشاء التصور الاسلامى عن حقيقة الاولوهية، وحقيقة العبودية، ثم عن هذا الكون وخلائقه، والصلة بين هذه الخلائق المنوعة.

وفى مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله، ونفى الصاحبة والولد، وإثبات الجزاء فى الآخرة، وإن أحدا من خلق الله لا يعجزه فى الأرض، ولا يفلت من يديه ويفوته، فلا يلاقى جزاءه العادل.

وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول -صلى الله عليه وسلم- من الخطاب: قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا...

قل: إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا" وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة.

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده، وأن العبودية هى أسمى درجة يرتفع إليها البشر: وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا" ... ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول(ﷺ) من خطاب: "قل: إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا" ...

والغيب موكول لله وحده، لا تعرفه الجن:" وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا".. ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم

الله عليه منه لحكمة يعلمها: "قل: إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا..."....

أما العباد والعبيد فى هذا الكون، فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ، ولو اختلف تكوينها، كالمشاركات التى بين الجن والإنس، مما حكته السورة وحكاه القرآن فى مواضع أخرى، فالانسان ليس بمعزل - حتى فى هذه الارض عن الخلائق الاخرى، وبينه وبينها اتصال وتفاعل فى صورة من الصور، وهذه العزلة التى يحسها الإنسان بجنسه - بله العزله الفردية او القبلية او القومية - لا وجود لها فى طبيعة الكون ولا فى واقعه، وأخرى بهذا التصور أن يفسح فى شعور الإنسان بالكون وما يعبره من أرواح وقوى وأسرار، قد يجهلها الإنسان ولكنها موجودة بالفعل من حوله، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحيانا أن يشعر.

ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة، وتحركات هذا الكون ونتائجها، وقدر الله فى العباد: "وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا" ... وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الاسلامى للارتباطات بين الانسان والكون وقدر الله.

وهكذا تمتد إيحاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة، وهى سورة لا تتجاوز الثمانى والعشرين آية، نزلت فى حادثة معينة ومناسبة خاصة..

فأما هذا الحادث الذى أشارت إليه السورة، حادث استماع نفر من الجن للقرآن، فتختلف بشأنه الروايات، قال الإمام الحافظ أبوبكر البيهقى فى كتابه: "دلائل النبوة ": عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال:" ما قرأ رسول الله(ﷺ) على الجن ولا رآهم. انطلق رسول الله (ﷺ) فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، أرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب.

قالوا: ماحال بينكم وبين

خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الارض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله(ﷺ) وهو بنخلة عامدا الى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه، فقالوا: هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا: "إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك

بربنا أحدا "وأنزل الله على نبيه (ﷺ): "قل: أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن" وإنما أوحى إليه قول الجن (رواه البخارى عن مسدد بنحو هذا، واخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن ابى عوانة بهذا النص).

فهذه رواية، وهناك رواية اخرى.. قال مسلم فى صحيحه: عن ابن مسعود قال: كنا مع رسول الله(ﷺ) ذات ليلة، فقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقيل: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو، جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يارسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: "أتانى داعى الجن، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن". قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم، قال رسول الله(ﷺ): فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم" ..

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله (ﷺ) ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق فنضرب عن هذه وأمثالها .. ومن الروايتين الواردتين فى الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول: إن الرسول (ﷺ) لم يعرف بحضور النفر من الجن، وأن ابن مسعود يقول: إنهم استدعوه، ويوفق البيهقى بين الروايتين بأنهما حادثان لاحادث واحد.

وجهه ثم قال: والله ان هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله (ﷺ): "ومن أهل اى البلاد أنت يا عداس؟ ومادينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله(ﷺ): من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ "فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟

فقال رسول الله(ﷺ): "ذاك أخى. كان نبيا وأنا نبى "فأكب عداس على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقبل رأسه ويديه وقدميه، قال: يقول ابنا ربيعه أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: ياسيدى مافى الأرض شىء خير من هذا، لقد اخبرنى بأمر ما يعلمه لا إلا نبى، قالا له: ويحك ياعداس: لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

"قال: ثم إن رسول الله(ﷺ) انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم -فيما ذكر- سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه(ﷺ) قال الله عزوجل: "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن "إلى قوله:" ويجركم من عذاب أليم". وقال تبارك وتعالى:" قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن" إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة".

وقد علق ابن كثير فى تفسيره على رواية ابن اسحاق هذه فقال: "هذا صحيح، ولكن قوله: إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر، فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس- رضى الله عنهما- المذكور، وخروجه(ﷺ) إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره، والله أعلم".

وإذا صحت رواية ابن اسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول (ﷺ) من الطائف، مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذى واجهه به كبراء ثقيف، وبعد ذلك الدعاء الكبير الودود لربه ومولاه، فإنه ليكون عجيبا حقا من هذا الجانب أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن، وأن يبلغه مافعلوا وماقالوا لقومهم، وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية مافيه..

وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم، فى دلالاته وفيما انطوى عليه، وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين.. فلنمض مع هذا كله كما يعرض القرآن الكريم.

"قل: أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبه ولا ولدا، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا، وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله احدا"..

والنفر ما بين الثلاثه والتسعة كالرهط، وقيل كانوا سبعة.

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبى(ﷺ) بأمر استماع الجن له، وماكان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه ... كانت بوحى من الله سبحانه إليه، وإخبارا عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول(ﷺ) ولكن الله أطلعه عليه: وقد تكون هذه هى المرة الأولى، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبى فيها على الجن عن علم وقصد، ويشهد بهذا ماجاء بشأن قراءاته(ﷺ) سورة الرحمن "أخرجه الترمذى باسناده -عن جابر رضى الله عنه قال: "لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: فبأى آلاء ربكما تكذبان؟ قالوا: لا بشىء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد" .. وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود- رضى الله عنه التى سبقت الإشارة إليها فى المقدمة.

ولا بد ان هذه المرة التى تحكيها هذه السورة هى التى تحكيها آيات الأحقاف: "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا: ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى، مصدقا لما بين يديه، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم، ويجركم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك فى ضلال مبين"..

فإن هذه الآيـات - كالسورة- تنبـئ عن وهلـة المفاجاة بهـذا القـرآن للجن، مفاجأة أطارت تماسكهم، وزلزلت قلوبهم، وهـزت مشـاعرهم، وأطلقت فى كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بهـا كيـانهم كلـه وفـاض، فـانطلقوا إلـى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضـة بمـا لا تملـك لـه دفعـا، ولا تملـك عليـه صبرا، قبـل ان تفيضـه علـى الآخريـن فـى هـذا الأسـلوب المتدفـق، النــابض بالحرارة والانفعال، وبالجد والاحتفال فى نفس الأوان وهـى حالـة مـن يفاجـأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه، وتخلخل تماسكه، وتدفعـه دفعـا إلـى نقـل مـا يحسه إلى نفوس الآخرين "إنا سمعنا قرآنا عجبا"..

فأول ما بدههم منه أنه "عجـب" غير مـألوف، وأنـه يثـير الدهـش فـى القلوب، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحـس واع وقلـب مفتـوح، ومشـاعر مرهفة، وذوق ذواق .. عجب، ذو سلطان متسلط، وذو جاذبيـة غلابـة. وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب .. عجيب فعلا، يـدل علـى أن أولئـك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون.

"يهدى إلى الرشد"..

وهذه هى الصفة الثانية البارزة كذلك فى هذالقرآن، والتى أحسها النفر من الجن، حين وجدوا حقيقتها فى قلوبهم.. وكلمة الرشد فى ذاتهـا ذات دلالـة واسعة المدى، فهو يهدى إلى الهدى والحق والصواب، ولكن كلمة الرشد تلقى ظلا آخر وراء هذا كلـه، ظـل النضـوج والاسـتواء والمعرفـة الرشـيدة للهـدى والحق والصواب، ظل الإدراك الذاتى البصير لهذه الحقـائق والمقومـات فهـى تنشئ حالة ذاتية فى النفس تهتدى بها إلى الخير والصواب.

والقرآن يهدى إلـى الرشـد بمـا ينشـئة فـى القلـب مـن تفتـح وحساسـية وإدراك ومعرفة، واتصال بمصدر النور والهدى، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى، كما يهدى إلى الرشد بمنهجه التنظيمى للحياه وتصريفها، هذا المنهـج الذى لم تبلغ البشرية عن تاريخها كله، فى ظـل حضـارة مـن الحضـارات، أو نظام من الأنظمة، مابلغته فى ظله أفرادا وجماعات، قلوبا ومجتمعات، أخلاقـا فردية ومعاملات اجتماعية .. على السواء "فآمنا به"..

وهى الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن، وإدراك طبيعتـه، والتأثر بحقيقته.. يعرضها الوحى علـى المشركين الذيـن كـانوا يسـمعون هـذا القرآن ثم لا يؤمنون، وفى الوقت ذاته ينسبونه إلى الجـن، فيقولـون: كـاهن أو شاعر أو مجنون.. وكلها صفات للجن فيها تأثير، وهؤلاء هم الجـن مبهوريـن بـالقرآن مسـحورين متـأثرين أشد التـأثر، منفعليـن أشـد الانفعـال، لا يملكـون أنفسهم من الهزة التى ترج كيانها رجـا .. ثم يعرفـون الحـق، فيسـتجيبون لـه مذعنين معلنين هذا الإذعان: "فآمنا به" غير منكرين لما مس نفوسهم منـه ولا معاندين، كما كان المشركون يفعلون.

ولن نشرك بربنا أحدا".. فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح، غير مشوب بشرك ولا ملتبس بوهم، ولا ممتزج بخرافة، الإيمان الذى ينبعـث مـن إدراك حقيقة القرآن، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن، حقيقـة التوحيد للـه بـلا شريك.

"وأنـه تعـالى جد ربنـا، مـا اتخذ صاحبة ولا ولـدا".. والجـد: الحـظ والنصيب، وهو القدر والمقام، وهو العظمة والسلطان.. وكلهـا إشـعاعات مـن اللفظ تناسب المقام، والمعنى الإجمالى منها فى الآية هو التعبـير عـن الشـعور باستعلاء أن يتخذ صاحبة- اى زوجة- وولدا بنين أو بنات.

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله، جاءته من صهر مع الجن فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسبيح لله وتنزيه، واسـتنكاف عن هذا التصور أن يكون، وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافـى الأسطورى لوكان يشبه أن يكون، فهى قذيفه ضخمة تطلـق علـى ذلـك الزعـم الواهى فـى تصـورات المشـركين وكـل تصـور يشـبه هـذه التصـورات، ممـن زعموا أن لله ولدا سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير.

"وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا، وأنا ظننا أن لن تقول الإنـس والجن على الله كذبا"..

وهذه مراجعة من الجن لمـا كـانوا يسـمعون مـن سفائهم مـن الشـرك بالله، وادعاء الصاحبة والولد والشريك، بعدما تبين لهم من سماع القـرآن أنـه لم يكن حقا ولا صوابا، وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل، وهم يعللـون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصـورون أن أحـدا يمكـن أن يكذب على الله من الإنس او الجن، فهم يستعظمون ويستهولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله، فلما قال لهم سفاؤهم: إن للـه صاحبـه وولـدا، وأن لـه شريكا صدقوهم، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبدا، وهذا الشـعور

من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله، هو الذى أهلهم للإيمان، فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة، إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة فلمامسها الحق انتفضت وأدركت، وتذوقت وعرفت، وكان منهم هذا الهتاف المدوى: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبه ولا ولدا"..

وهذه الانتفاضة من مس الحق، جديرة بأن تنبه قلوبا كثيرة مخدوعة فى كبراء قريش، وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولدا، وأن تثير فى هذه القلوب الحذر واليقظة، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد(ﷺ) وما يقوله كبراء قريش، وأن تزلزل الثقة العمياء فى مقالات السفهاء من الكبراء وقد كان هذا كله مقصودا بذكر هذه الحقيقة، وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة، وحلقة من حلقات العلاج البطىء لعقابيل الجاهلية وتصوراتها فى تلك القلوب، التى كان الكثير منها غرا بريئا، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين.

وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفا فى الجاهلية- ومايزال متعارفا إلى اليوم فى بيئات كثيرة – من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس، وأن لهم قدرة على النفع والضر، وأنهم محَكَّمون فى مناطق من الأرض أو البحر أو الجو.. إلى آخر هذه التصورات.

مما كان يقتضى القوم إذا باتوا فى فلاة أو مكان موحش، أن يستعيذوا بسيد الوادى من سفهاء قومه،ثم يبيتون بعد ذلك آمنين.

والشيطان مسلط على قلوب بنى آدم - إلا من اعتصم بالله فهو فى نجوة منه - وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه، فهو له عدو، إنما يرهقه ويؤذيه .. وهؤلاء النفر من الجن يحكون ماكان يحدث:

"وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا". ولعل هذا الرَّهَق هو الضلال والقلق والحيرة التى تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم، ولا يعتصمون بالله منه ويستعيذون كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وماكان بينه وبين إبليس من العداء القديم، والقلب البشرى حين يلجأ إلى غير الله، طمعا فى نفع، أو دفعا لضر، لاينالـه إلا القلق والحيرة، وقلة الاستقرار والطمأنينة .. وهذا هو الرهق فى أسوأ صورة .. الرهق الذى لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة.

إن كل شيء- سوى الله- وكل أحد، متقلب غير ثابت، ذاهب غير دائم، فإذا تعلق به قلب بقى يتأرجح ويتقلب ويتوجس، وعاد بغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذى عقد به رجاءه، والله وحده هو الباقى الذى لا يزول، الحى الذى لا يموت، الدائم الذى لا يتغير فمن اتجه إليه اتجه إلى المستقر الثابت الذى لا يزول ولا يحول:

" وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا".. يتحدثون إلى قومهم، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن، يقولون

إنهم كانوا يظنون – كما أنكم تظنون – أن الله لن يبعث رسولا، ولكن هاهو ذا قد بعث رسولا، بهذا القرآن الذى يهدى إلى الرشد .. أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب – كما ظننتم – فلم يعملوا للآخرة شيئا، وكذبوا ما وعدهم الرسول(ﷺ) من أمرها، لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها.

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله فى خلق البشر، فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال (كما تعرف من هذه السورة ان للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم الشر كإبليس، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج) ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسل، يستجيشون فى نفوسهم عنصر الخير، ويستنقذون ما فى فطرتهم من استعداد للهدى، فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحدا.

هذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل، فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه المنشأة التى لا تستكمل حسابها فى الحياة الدنيا، لحكمة أرادها الله، وتتعلق بتنسيق للوجود يعلمه ولا نعلمه، فجعل البعث فى الآخرة لتستوفى الخلائق حسابها، وتنتهى إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى فى الحياة الدنيا، فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحدا من الناس، فهذا الظن مخالف للاعتقاد فى حكمة الله وكماله، سبحانه وتعالى..

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم، والقرآن فى حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم.

ويمضى الجن فى حكاية مالقوه وماعرفوه من شأن هذه الرسالة فى جنبات الكون، وفى أرجاء الوجود، وفى أحوال السماء والأرض، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب، ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر:

"وأنا لمسنا السماء فوجدناها حرسا شديدا وشهباء وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا؟"..

وهذه الوقائع التى حكاها القرآن عن الجن من قولهم، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة- ربما فى الفترة بينها وبين الرسالة التى قبلها وهى رسالة عيسى عليه السلام - كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى، واستراق شيء مما يدور فيه، بين الملائكة، عن شئون الخلائق فى الأرض، مما يكلفون قضاءه تنفيذا لمشيئة الله وقدره، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس على أيدى هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل، ويروجونه بين جماهير الناس فى الفترة بين الرسالتين وخلو الأرض من رسول .. أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئا، ولا ضرورة لتقصيها إنما هى جملة هذه الحقيقة وفحواها.

وهذا النفر من الجن يقول: إن استراق السمع لم يعد ممكنا، وأنهم حين حاولوه الآن - وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء - وجدوا الطريق إليه

محروسا بحرس شديد، يرجمهم بالشهب، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئا عن الغيب المقدر للبشر".. فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه، فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض، قدر أن ينزل بهم الشر، فهم متروكون للضلال؛ أم قدر لهم الرشد وهو الهداية –وقد جعلوها مقابلة للشر– فهي الخير، وعاقبتها هي الخير.

وإذا كان المصدر الذى يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب، يقرر أنه هو لا يدرى عن ذلك شيئا، فقد انقطع كل قول، وبطل كل زعم، وانتهى أمر الكهانة والعرافة، وتمحض الغيب لله، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته، ولا على التنبؤ به، وأعلن القرآن تحرير العقل البشرى من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير.

أما أين يقف ذلك الحرس؟ ومن هو وكيف يرجم الشياطين بالشهب؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئا، وليس لنا مصدر سواهما نستقى منه عن هذا الغيب شيئا، ولو علم الله أن فى تفصيله خيرا لنا لفعل وإذا لم يفعل فمحاولتنا نحن فى هذا الاتجاه عبث، لا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا المثمرة شيئا.

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب، وأنها تسير وفق نظام كونى، قبل البعثة وبعدها، ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره، بنظريات تخطئ وتصيب، وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا

يدخل فى موضعنا، ولا يمنع أن ترجم الشياطين بهـذه الشـهب عند انطلاقها، وأن تنطلق هذه الشهب رجوما وغير رجوم وفق مشيئة الله الذى يجرى عليها القانون.

فأما الذين يرون فى هذا كله مجرد تمثيل وتصويـر لحفـظ اللـه للذكـر من الالتباس بأى باطل، وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره فسبب هـذا عندنـا أنهم يجيئون إلى القـرآن بتصـورات مقررة سـابقة فـى أذهـانهم، أخذوهـا مـن مصـادر أخـرى غير القرآن، ثـم يحـاولون أن يفسـروا القـرآن وفـق تلـك التصورات السابقة المقررة فى أذهـانهم مـن قبـل .. ومـن ثـم يـرون الملائكـة تمثيلا لقوة الخير والطاعة.

والشـياطين تمثيـلا لقـوة الشـر والمعصيــة، والرجــوم تمثيــلا للحفــظ والصيانه ..إلخ لأن فى مقرراتهم السابقة - قبل أن يواجهوا القرآن - أن هـذه المسميات: الملائكة والشياطين أو الجن، لا يمكن أن يكون لهـا وجـود مجسـم على هذا النحو، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية والتأثيرات الواقعية !!!

من أين جاءوا بهذا؟ مـن أيـن جـاءوا بهـذه المقررات التـى يحـاكمون إليها نصوص القرآن والحديث؟ إن الطريق الأمثل فـى فهـم القرآن وتفسيره، وفى التصور الاسلامى وتكوينه .. أن ينفـض الانسـان مـن ذهنـه كـل تصـور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية او شعورية سـابقة، وأن يبنى مقرراته كلها حسبما يصـور القـرآن والحديـث حقـائق هـذا الوجـود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفى شيئا يثبته القرآن ولا

يؤوله ! ولا يثبت شيئا ينقضه القرآن أو يبطله، وماعدا المثبت والمنفى فى القرآن، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته..

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن .. وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة فى عقولهم، وتصورات سابقة فى أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود.

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفى هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شىء منها، فهم مضحكون حقا فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه، والتى يستخدمها فى تجاربه، وهذا لا ينفى وجودها طبعا فضلا على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين، أو على الاقل لا ينكرون مالا يعلمون لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم -عن طريق العلم ذاته- أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه فتواضعوا تواضعا علميا نبيلا لبست عليه سمة الادعاء ولا طابع التطاول على المجهول، كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمى ممن ينكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول.

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار عامر بالأرواح حاشد بالقوى وهذه السورة من القرآن -كغيرها- تمنحنا جوانب من الحقائق فى هذا الوجود تعين على بناء تصور حقيقى صحيح للوجود ومافيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا وتتفاعل مع حياتنا وذواتنا.

وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ويقف به وسطا بين الوهم والخرافة وبين الادعاء والتطاول، ومصدره هو القرآن والسنة، وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر، وكل قول وكل تفسير...

وإن هنالك مجالا للعقل البشرى معينا فى ارتياد آفاق المجهول والاسلام يدفعه إلى هذا دفعا... ولكن وراء هذا المجال المعين مالا نقدره لهذا العقل على ارتياده، لأنه لاحاجة به إلى ارتياده، ومالا حاجة له به فى خلافه الأرض فلا مجال له إليه، ولا حكمة فى إعانته عليه، لأنه ليس من شأنه ولا داخلا فى حدود اختصاصه، والقدر الضرورى له ليعلم مركزه فى الكون بالقياس إلى ماحوله ومن حوله، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له لأنه أكبر من طاقته، وبالقدر الذى يدخل فى طاقته ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير ...

فأما الذين اهتدوا بهدى الله، فقد وقفوا فى هذه الأمور عند القدر الذى كشفه الله لهم فى كتبه وعلى لسان رسله، وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق وحكمته فى الخلق والشعور بموقف الإنسان فى الأرض من هذه العوالم والأرواح وشغلوا طاقاتهم العقلية فى الكشف والعلم المهيأ للعقل فى حدود هذه الأرض وماحولها من أجرام بالقدر الممكن لهم، واستغلوا ماعلموه فى العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافه فيها على هدى من الله متجهين إليه، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع.

واما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين:

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك المحدود من ذاته تعالى فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطه فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلا شاهقا لاغاية لقمته أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء وكانت لهم تصورات مضحكة - وهم كبار فلاسفة - مضحكة حقا حين يقرؤها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذى ينشئه القرآن، مضحكة بثغراتها ومضحكة بمفارقاتها، ومضحكمة بقزامتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذى يفسرونه بها، لا أستثنى من هذا فلاسفة الإغريق الكبار، ولا فلاسفة المسلمين الذين قلدوهم فى منهج التفكير، ولا فلاسفة العصر الحديث، وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الاسلامى للوجود(١).

فهذه فرقة، فأما الفرقة الأخرى فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه فى المعرفة، فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها فى العلم التجريبى والتطبيقى ضاربة صفحا عن المجهول، الذى ليس إليه من سبيل، وغير مهتدية فيه بهدى الله، لأنها لا تستطيع أن تدرك الله، وهذه الفرقة كانت فى أوج غلوائها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفيق من الغرور العلمى الجامح، على هروب المادة من بين أيديها وتحولها إلى إشعاع "مجهول الكنه" ويكاد يكون مجهول القانون.

---

(١) فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان .. بحث يرجو المؤلف أن يوفق إلى إخراجه بعون الله.

وبقى الاسلام ثابتا على صخرة اليقين يمنح البشر من المجهول القدر الذى لهم فيه خير، ويوفر طاقتهم العقلية للعمل فى خلافة الأرض ويهيئ لعقولهم المجال الذى تعمل فيه فى أمن، ويهديهم للتى هى أقوم فى المجهول وغير المجهول.

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله، بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان فى الاستعداد للهدى والضلال ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم فى ربهم وقد آمنوا به، وعن ظنهم بعاقبة من يهتدى ومن يضل:

" وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك، كنا طرائق قددا، وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا، وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون: فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا".

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين، مسلمين وقاسطين يفيد ازدواج طبيعة الجن واستعدادهم للخير والشر كالإنسان - إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله - وهو تقرير ذو أهمية بالغة فى تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق.

فأغلبنا -حتى الدراسين الفاقهين- على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر، وقد خلصت طبيعتهم له، وأن الإنسان وحده بين الخلائق وهو ذو الطبيعة

المزدوجة، وهذا ناشئ من مقررات سابقة فى تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود ـ كما اسلفنا ـ وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة.

وهذا النفر من الجن يقول:" وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك". ويصف حالهم بصفة عامة:"كنا طرائق قددا" أى لكل منا طريقته المنفصلة المقدورة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر.

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم:

"وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا" فهم يعرفون قدرة الله عليهم فى الأرض، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه – سبحانه– والإفلات من قبضته والفكاك من قدره، فلا هم يعجزون الله وهم فى الأرض ولاهم يعجزونه بالهرب منها،وهو ضعف العبد أمام الرب وضعف المخلوق أمام الخالق، والشعور بسلطان الله القاهر الغالب وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس، وهم الذين يستعين بهم الإنس فى الحوائج وهم الذين جعل المشركون بين الله – سبحانه – وبينهم نسبا وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله وضعفهم وقوة الله وانكسارهم وقهر الله، فيصححون، لا لقومهم فحسب،بل للمشركين كذلك حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه.

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى وقد قرروه من قبل ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطرائقهم تجاه الإيمان "وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به".

كما ينبغى لكل من يسمع الهدى، وهم سمعوا القرآن ولكنهم يسمعونه هدى كما هى حقيقته ونتيجته ثم يقررون ثقتهم فى ربهم وهى ثقة المؤمن فى مولاه.: "فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا"

وهى ثقة المطمئن إلى عدل الله وإلى قدرته ثم إلى طبيعة الايمان وحقيقته ... فالله- سبحانه- عادل، ولن يبخس المؤمن حقه ولن يرهقه بما فوق طاقته. والله -سبحانه- قادر، فسيحمى عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقا، ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة، ومن ذا الذى يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو فى حماية الله ورعايته؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ولكن هذا ليس هو البخس، فالعوض عما يحرمه منها عنه البخس، وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض لكن هذا ليس هو الرهق، لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكبر به وصلته بربه تهون عليه المشقة فتمحضها لخيره فى الدنيا والآخرة.

المؤمن إذن فى أمان نفسى من البخس ومن الرهق:" فلا يخاف بخسا ولا رهقا" ... وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية، فلا يعيش فى قلق وتوجس، حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع ولم تغلق على نفسه المنافذ... إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر فرج الله منها فيؤجر، وهو فى الحالين لم يخف بخسا ولا رهقا، ولم يكابد بخسا ولا رهقا.

وصدق النفر المؤمن من الجن فى تصوير هذه الحقيقة المنيرة.

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال، والجزاء على الهدى والضلال.

" وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا".

والقاسطون: الجائرون المجانبون للعدل والصلاح، وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقا يقابل المسلمين وفى هذا إيماءة لطيفة بليغة المدلول، فالمسلم عادل مصلح يقابله القاسط: الجائر المفسد ....

" فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا"... والتعبير لفظ "تحروا" يوحى بأن الاهتداء إلى الاسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء - ضد الغى والضلال - ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح، وليس هو خبط عشواء ولا انسياقا بغير إدراك، ومعناه أنهم وصلوا فعلا إلى الصواب حين اختاروا الإسلام ...... وهو معنى دقيق وجميل .....

"وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا" أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطبا لجهنم، تتلظى بهم وتزداد اشتعالا كما تتلظى النار بالحطب.

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار، ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة.. هكذا يوحى النص القرآنى، وهو الذى نستمد منه تصورنا، فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئا يستند فيه إلى تصور غير قرآنى، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة .. فسيكون ما قاله الله حقا بلا جدال .

وما ينطبق على الجن مما بينوه لقومهم، ينطبق على الإنس، وقد قاله لهم الوحى بلسان نبيهم.

وإلى هنا كان الوحى يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم، ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه، وذكرها بفحواها لا بألفاظها:

" وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا"..

يقول الله -سبحانه- إنه كان من مقالة الجن عنا: ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء .." لنفتنهم فيه ".. ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون.

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكرى فحوى قولهم فى هذه النقطة، يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه، ومثل هذه اللفتات كثير فى الأسلوب القرآنى، لإحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها.

وهذه اللفته تحتوى جملة حقائق، تدخل فى تكوين عقيدة المؤمن، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها، الحقيقة الأولى: هى الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله، وبين إغداق

الرخاء وأسبابه، وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه، ومازال الحياة تجرى على خطوات الماء المباركة حتى هذا العصر الذى انتشرت فيه الصناعة، ولم تعد الزراعة هى المصدر الوحيد للرزق والرخاء، ولكن الماء هو الماء فى أهميته العمرانية.

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين فى الأرض حقيقة قائمة، وقد كان العرب فى جوف الصحراء يعيشون فى شظف، حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التى يغدودق فيها الماء، وتتدفق فيها الأرزاق، ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا، وما يزالون فى نكد وشظف، حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله.

وإذا كانت هناك امم لا تستقيم على طريقة الله، ثم تنال الوفر والغنى، فانها تعذب بآفات أخرى فى إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الانسان وكرامته فيها، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء.

وتحيل الحياة فيها لعنة مشئومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه فى سورة نوح)..

والحقيقة الثانية التى تنبثق من نص هذه الآيه: هى أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة، ونبلوكم بالشر والخير فتنته، والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس مايلوح للنظرة العجلى .. فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها، بحكم ما تثيره فى النفس من تجمع ويقظه ومقاومة، ومن ذكر

الله والتجاء إليه واستعانة به، حين تسقط الأسناد فى الشدة فلا يبقى إلا ستره
فأما الرخاء فينسى ويلهى، ويرخى الأعضاء وينيم عناصر المقاومة فى
النفس، ويهيئ الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة فى حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعتصم من الفتنة
.. نعمة المال والرزق كثيرا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر، مع السرف
أو مع البخل، وكلاهما آفه للنفس والحياة ..

والجور، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس، والتهجم على
حرمات الله .. ونعمة الجمال كثيرا ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتتردى
فى مدارك الإثم والغواية .. ونعمة الذكاء كثير ما تقود إلى فتنة الغرور
والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين .. وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا
مَن ذَكَرَ الله فعصمه الله ..

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله، الذى قد تنتهى إليه فتنة
الابتلاء بالرخاء، مؤد إلى عذاب الله والنص يذكر صفة للعذاب "يسلكه عذابا
صعدا".. توحى بالمشقة مذ كان الذى يصعد فى المرتفع يجد مشقة فى
التصعيد كلما تصعد، وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد، فجاء فى
موضع: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يضله
يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يَصَّعَد فى السماء". وجاء فى موضع:
"سأرهقه صعودا". وهى حقيقة مادية معروفة، والتقابل واضح بين الفتنة
والرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !.

والآية الثالثة فى السياق يجوز ان تكون حكاية لقول الجن، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء: "وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا"..

وهى فى الحالتين توحى بأن السجود - أو مواضع السجود وهى المساجد - لا تكون إلا لله، فهناك يكون التوحيد الخالص، ويتوارى كل ظل لكل أحد، ولكل قيمة، ولكل اعتبار، وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصه لله، ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره، وقد يكون بالالتجاء إلى سواه، وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله.

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهى توكيد لما سبق من قولهم: "ولن نشرك بربنا أحدا: فى موضع خاص، وهو موضع العبادة والسجود، وإن كانت من قول الله ابتداء، فهى توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم، يجيء فى موضعه على طريقة القرآن وكذلك الآية التالية:

"وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا"..

أى متجمعين متكتلين عليه، حين قام يصلى ويدعو ربه، والصلاة معناها فى الأصل الدعاء.

فإذا كانت من مقولات الجن، فهى حكاية منهم عن مشركى العرب، الذين كانوا يتجمعون فئاتٍ حول رسول الله(ﷺ)، وهو يصلى أو وهو يتلو القرآن كما قال فى "سورة المعارج" :" فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين؟..

يتسمعون فى دهش ولا يستجيبون، أو وهم يتجمعون لإيقاع الأذى به، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مرارا .. ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجب من أمر هؤلاء المشركين.

وإذا كانت من أخبار الله ابتداء، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن، حين سمعوا القرآن.. العجب.. فأخذوا ودهشوا، وتكأكأوا على رسول الله(ﷺ) بعضهم لصق ببعض، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها، بعضة لصق بعض.. ولعل هذا هو الأقرب لمدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياع والوهلة البادية فى مقالة الجن كلها والله أعلم..

وعندما تنتهى حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن، وعن هذا الأمر، الذى فاجأ نفوسهم، وهز مشاعرهم وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر، وعلى ما أحدثه من آثار فى نسق الكون كله، وعلى الجد الذى يتضمنه، والنواميس التى تصاحبه.

عندما ينتهى هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول(ﷺ) فى إيقاعات جادة صارمة حاسمة بالتبليغ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ، والتجرد كذلك من كل دعوى فى الغيب أو فى حظوظ الناس ومقادرهم.. وذلك كله فى جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب مافيه من جد ومن صرامة: "قل: إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا، قل: إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا. قل: إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، حتى

إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا،قل: إن أدرى أقريب ما توعدون ام يجعل له ربى أمدا، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا"..

قل يا محمد للناس: "إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا".

وهذا الإعلان يجىء بعد إعلان الجن لقومهم: "ولن نشرك بربنا أحدا".. فيكون له طعمه وله إيقاعه، فهى كلمة الإنس والجن، يتعارفان عليها، فمن شذ عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين.

قل: إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا".. يؤمر الرسول- صلى الله عليه وسلم – أن يتجرد، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشىء هو من خصائص الله الواحد الذى يعبده ولا يشرك به أحدا، فهو وحده الذى يملك الضر ويملك الخير، ويجعل مقابل الضر الرشد، وهو الهداية، كما جاء التعبير فى مقالة الجن من قبل:"وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا".. فيتطابق القولان فى اتجاههما وفى ألفاظهما تقريبا، وهو تطابق مقصود فى القصة والتعقيب عليها، كما يكثر هذا فى الأسلوب القرآنى..

وبهذا وذلك يتجرد الجن – وهو موضع الشبهة فى المقدرة على النفع والضر – ويتجرد النبى(ﷺ) وتتفرد الذات الالهية بهذا الأمر، ويستقيم التصور الإيمانى على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح.

"قل: إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته .. "..

وهذه هى القولة الرهيبة، التى تملأ القلب بجدية هذا الأمر.. أمر الرسالة والدعوة.. والرسول(ﷺ) يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة.. إنى لن يجيرنى من الله أحد، ولن أجد من دونه ملجأ أو حماية، إلا أن أبلغ هذا الأمر، وأؤديه هذه الأمانة، فهذا هو الملجأ الوحيد، وهذه هى الإجارة المأمونة، إن الأمر ليس أمرى، وليس لى فيه شىء إلا التبليغ، ولا مفر لى من هذا التبليغ، فأنا مطلوب به من الله ولن يجيرنى منه أحد، ولن أجد من دونه ملجأ يعصمنى، إلا أن أبلغ وأؤدى، يا للرهبة ويا للروعة ويا للجد!!.

إنها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الدعوة، إنما هو التكليف الصارم الجازم، الذى لا مفر من أدائه، فالله من ورائه.

وإنها ليست اللذه الذاتية فى حمل الهدى والخير للناس.

إنما هو الأمر العلوى الذى لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه.

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد.. إنها تكليف وواجب وراءه الهول، ووراءه المتعال.

"ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا".

فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصى بعد التلويح بالجد الصارم فى التكليف بذلك البلاغ.

واذا كان المشركون يركنون إلى قوة والى عدد، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد(ﷺ) والمؤمنين القلائل معه، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون- إما فى الدنيا وإما فى الآخرة- "من أضعف ناصرا وأقل عددا". وأى الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل.

ونعود إلى مقاله الجن فنجدهم يقولون: "وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا" فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها، ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجىء فى أوانه وموعده المطلوب.

ثم يؤمر الرسول(ﷺ) أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضا:

"قل : إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا"..

إن الدعوة ليست من أمره، وليس له فيها شىء، إلا أن يبلغها قياما بالتكليف، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان - الذى لا يبلغه إلا أن يبلغ ويؤدى- وأن ما يوعدونه على العصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله، وليس له فيه يد، ولا يعلم له موعدا، فما يدرى أقريب هو أم بعيد يجعل له الله أمدا ممتدا، سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فكله غيب فى علم الله،

وليس للنبى من أمره شيء، ولا حتى علم موعده متى يكون-والله سبحانه - هو المختص بالغيب دون العالمين:

"عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا"..

ويقف النبى(ﷺ) متجردا من كل صفة إلاصفة العبودية، فهو عبدالله، وهذا وصفه فى أعلى درجاته ومقاماته.. ويا لتجرد التصور الاسلامى من كل شبهة ومن كل غبش.

والنبى(ﷺ) يؤمر أن يبلغ فيبلغ: "قل: إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا "...

هناك فقط استثناء واحد.. وهو ما يأذن به الله من الغيب فيطلع عليه رسله، فى حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس فما كان ما يوحى به إليهم إلا غيبا من غيبه، يكشفه لهم فى حينه ويكشفه لهم بقَدَر، ويرعاهم وهم يبلغونه، ويراقبهم كذلك.. ويؤمر الرسول(ﷺ) أن يعلن هذا فى صورة جادة رهيبة:

إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وأحاط بما لديهم، وأحصى كل شيء عددا"..

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته، يطلعهم على جانب من غيبه، هو هذا الوحى: موضوعه، وطريقته، والملائكة الذين يحملونه

ومصدره، وحفظه فى اللوح المحفوظ.. إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان فى ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم.

وفى الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة للحفظ وللرقابة، يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغه، ومن وسوسة النفس وتمنيتها، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة، ومن النسيان أو الانحراف، ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف..

والتعبير الرهيب – "فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا".. يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول، وهو يؤدى هذا الأمر العظيم.. "ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم".. والله يعلم. ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه فى عالم الواقع.

"وأحاط بما لديهم ".. فما من شيء فى نفوسهم وفى حياتهم ومن حولهم، إلا وهو فى قبضة العلم لا يند منه شيء..

وأحصى كل شيء عددا "..لا يقتصر على مالدى الرسل، بل يحيط بكل شيء إحصاء وعدا، وهو أدق الإحاطة والعلم.

وتصور هذه الحال، والرسول محوط بالحراس والأرصاد، وعلم الله على كل مالديه، وكل ما حوله، وهو يتلقى التكليف جنديا لا يملك إلا أن يؤدى، ويمضى فى طريقه ليس متروكا لنفسه، ولا متروكا لضعفه، ولا

متروكا لهواه، ولا متروكا لما يحبه ويرضاه، إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة، وهو يعلم هذا ويستقيم فى طريقه لا يتلفت هنا او هناك، فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ويعلم ماهو مسلط عليه من علم وكشف.

إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول، كما يثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير.

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة، التى بدأت بالروعة والرجفة والانبهار بادية فى مقالة الجن الطويلة المفصلة، الحافلة بآثار البهر والرجفة والارتياع.

وتقرر السورة التى لا تتجاوز الثمانى والعشرين آيه، هذا الحشد من الحقائق التى تدخل فى تكوين عقيدة المسلم، وفى إنشاء تصوره الواضح المستقيم، الذى لا يغلو ولا يفرط، ولا يغلق على نفسه نوافذ المعرفة، ولا يجرى -مع هذا- خلف الأساطير والأوهام.

وصدق النفر الذى آمن حين سمع القرآن، وهو يقول: "إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به".

مَنْ الغَريب ؟

سؤال يسأله الإمام زين العابدين، على بن الحسين بن على بن أبى طالب- رضى الله عنهم أجمعين- فى هذه القصيدة التى تنسب إليه، بل ذكر لى أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب أن للإمام زين العابدين ديواناً مطبوعاً فى مصر منذ فترة طويلة.

إن هذى القصيدة التى نقدمها للقارئ هنا لتثبت أن الأدب العربى - والشعر منه- على وجه الخصوص، لا يتسم بتلك السمات والقسمات التى تروج، أو تروج إن قصداً أو عمداً، وإن بغفلة وحسن نية، وبراءة أو سذاجة فى الطوية.

إن هذا النص وغيره من النصوص التى قدمناها لتثبت أن الأدب العربى ليس أدب المدح والاستجداء، أو الخلاعة والمجون، لكنه يعمد فى نصوص كثيرة لا يستهان بكثرتها أو قيمتها إلى أسس الحياة وأصولها، وأهم شئونها وشجونها.

وليس هناك أهم من الموت، تلك الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أو الجدال بشأنها، إذ مهما تجاهل المرء فى خضم الصراع الدنيوى ومعتركاته، مهما تجاهل، أو حاول أن يتجاهل، فإن الموت يفجأ، بل لا يأتى إلا فجأة وفى فجاءة.

بل إن الله قد ينبه المرء بمرض أو رؤيا أو غيرها، ولكن المرأ المتثبت فى هذى الدنيا بيده وأسنانه وأظافره وأظلافه لا يلتفت فى كثير من الأحيان

إلى هذه النذر والرسل حتى تأتى بغتة الموت، وهنا لا يؤخر ثانية، ولا يؤجل أقل من الثانية الواحدة، أو جزىء صغير منها.

والآيات والأحاديث متواترة شديدة التواتر فى هذا الأمر، ولكن المرء الغافل لا يلتفت إلى شىء من هذا، ويكفينا آية : "الهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر" أى بقيتم فى لهوكم وتكاثركم حتى الموت، لاحظ أن الآية تقول : (زرتم المقابر) ولا تقول ذهبتم إلى المقابر، أو دفنتم فى المقابر، لأن فترة القبر إن هى إلا فترة -بالنسبة لغيرها- قصيرة كأنها الزيارة، لابد أن تنتهى، بل سرعان ما سوف تنتهى.

والآن نترك القارئ الكريم لهذا النص المؤثر لقراءته، قراءة جهرية فيما نرى، أو يخافت بها، إن أراد القارئ.

مَنْ الغريب ؟

للإمام علي زين العابدين

لَيْسَ الغَـرِيبُ غَرِيبَ الشَّامِ وَاليَمَـنِ
إِنَّ الغَرِيبَ غَرِيبُ اللَّحـدِ وَالكَفَـنِ

إِنَّ الغَـرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِغُرْبَتِـهِ
عَلَى المُقِيمِينَ فِي الأَوْطَانِ وَالسَّكَنِ

سَفَـرِي بَعِيدٌ وزَادي لَنْ يُبَلِّغَنِـي
وَقُوَّتِي ضَعُفَتْ وَالمَـوْتُ يَطْلُبُنِـي

وَلِي بَقَايَا ذُنُـوبٍ لَسْتُ أَعْلَمُهَـا
اللهُ يَعْلَمُهَـا فِي السِّرِّ وَالعَلَـنِ

مَا أَحْلَـمَ اللهَ عَنِّـي حَيْثُ أَمْهَلَنِـي
وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِي ذَنْبِـي وَيَسْتُرنِـي

تَمُـرُّ سَاعَـاتُ أَيَّامِـي بِلا نَدَمٍ
وَلا بُكَـاءٍ وَلا خَوْفٍ وَلا حَزَنٍ

أَنَا الَّذِي أُغْلِـقُ الأَبْوَابَ مُجْتَهِـداً
عَلَى المَعَاصِي وعَيْـنُ اللهِ تَنْظُرنِـي

يَا زَلَّةً كُتِبَتْ فِي غَفْلَـةٍ ذَهَبَتْ
يَا حَسْرَةً بَقِيَتْ فِي القَلْبِ تُحْرِقُنِـي

دَعْنِي أَنُوحُ عَلَـى نَفْسِي وَأَنْدُبُهَـا
وَأَقْطَعُ الدَّهْـرَ بِالتَّذْكِيـرِ وَالحَـزَنِ

كَأَنَّنِي بَيْنَ تِلْكَ الأَهْلِ مُنطَرِحاً
عَلَى الفِرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُنِي

وَقَدْ أَتَوْا بِطَبِيبٍ كَيْ يُعَالِجَنِي
وَلَمْ أَرَ الطِّبَّ اليَوْمَ يَنْفَعُنِي

وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ المَوْتُ يَجْذِبُهَا
مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفْقٍ وَلَا هَوَنِ

وَاسْتَخْرَجَ الرُّوحَ مِنِّي فِي تَغَرْغُرِهَا
وَصَارَ رِيقِي مَرِيراً حِينَ غَرْغَرَنِي

وَغَمَّضُونِي وَرَاحَ الكُلُّ وَانْصَرَفُوا
بَعْدَ الإِيَاسِ وَجَدُّوا فِي شِرَا الكَفَنِ

وَقَامَ مَنْ كَانَ أَحَبَّ النَّاسِ فِي عَجَلٍ
نَحْوَ المُغَسِّلِ يَأْتِينِي يُغَسِّلُنِي

وَقَالَ يَا قَوْمُ نَبْغِي غَاسِلاً حَذِقاً
حُرًّا أَدِيباً أَرِيباً عَارِفاً فَطِنِ

فَجَاءَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَنِي
مِنَ الثِّيَابِ وَأَعْرَانِي وَأَفْرَدَنِي

وَأَوْدَعُونِي عَلَى الأَلْوَاحِ مُنْطَرِحاً
وَصَارَ فَوْقِي خَرِيرُ المَاءِ يُنَظِّفُنِي

وَأَسْكَبَ المَاءَ مِنْ فَوْقِي وَغَسَّلَنِي
غَسْلاً ثَلاثاً وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ

وَأَلْبَسُونِـي ثِيَابـاً لَا كِمَـامَ لَهَـا
وَصَارَ زَادِي حَنُوطِي حِيـنَ حَنَّطَنِـي
وَأَخْرَجُونِـي مِنَ الدُّنْيَـا فَوَا أَسَفَـا
عَلَـى رَحِيـلٍ بِلَا زَادٍ يُبَلِّغُنِـي
وَحَمَّلُونِي عَلَـى الأَكْتَـافِ أَرْبَعَـةٌ
مِنَ الرِّجَـالِ وَخَلْفِـي مَنْ يُشَيِّعُنِـي
وَقَدَّمُونِي إِلَى المِحْرَابِ وَانْصَرَفُـوا
خَلْفَ الإِمَـامِ فَصَلَّـى ثُمَّ وَدَّعَنِـي
صَلَّوا عَلَيَّ صَلَاةً لَا رُكُـوعَ لَهَـا
وَلَا سُجُـودَ لَعَـلَّ اللهُ يَرْحَمُنِـي
وَأَنْزَلُونِي إِلَى قَبْـرِي عَلَـى مَهَـلٍ
وَقَدَّمُـوا وَاحِـداً مِنْهُـمْ يُلَحِّدُنِـي
وَكَشَّفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي لِيَنْظُرَنِـي
وَأَسْبَلَ الدَّمْـعَ مِنْ عَيْنَيْـهِ أَغْرَقَنِـي
فَقَـامَ مُحْتَرِمـاً بِالعَـزْمِ مُشْتَمِـلاً
وَصَفَّفَ اللَّبْـنَ مِنْ فَوْقِـي وَفَارَقَنِـي
وَقَـالَ هُلُّـوا عَلَيْـهِ التُّـرْبَ وَاغْتَنِمُـوا
حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الرَّحْمَنِ ذِي المِنَنِ
فِي ظُلْمَـةِ القَبْـرِ لَا أُمٌّ هُنَـاكَ وَلَا
أَبٌ شَفِيـقٌ وَلَا أَخٌ يُؤَنِّسُنِـي

وَهَالَنِي صُورَةٌ فِي العَيْنِ إِذْ نَظَرَتْ
مِنْ هَوْلِ مَطْلَعِ مَا قَدْ كَانَ أَدْهَشَنِي
مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ مَا أَقُولُ لَهُمْ
قَدْ هَالَنِي أَمْرُهُمْ جِدًّا فَأَفْزَعَنِي
وَأَقْعَدُونِي وَجَدُّوا فِي سُؤَالِهِمُ
مَا لِي سِوَاكَ إِلَهِي مَنْ يُخَلِّصُنِي
فَامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفْوٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي
فَإِنَّنِي مُوثَقٌ بِالذَّنْبِ مُرْتَهَنِ
تَقَاسَمَ الأَهْلُ مَالِي بَعْدَمَا انْصَرَفُوا
وَصَارَ وِزْرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي
وَاسْتَبْدَلَتْ زَوْجَتِي بَعْلاً لَهَا بَدَلِي
وَحَكَّمَتْهُ فِي الأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ
وَصَيَّرَتْ وَلَدِي عَبْداً لِيَخْدِمَهُ
وَصَارَ مَالِي لَهُمْ حِلًّا بِلَا ثَمَنِ
فَلا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا فِي الأَهْلِ وَالوَطَنِ
وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الحَنْطِ وَالكَفَنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

دعاء يوم عرفة

يقول الله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة[1] لله) وقال أيضا: (ولله على الناس حج البيت، من استطاع إليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غنى[2] عن العالمين)

وقال سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم: (من حج، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه).

رواه البخارى ومسلم

تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة.

رواه النسائى والترمذى

الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم.

رواه النسائى وابن ماجة

العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما.

رواه البخارى.

---

(١) ١٩٦/ البقرة.

(٢) ٩٧/ آل عمران.

هذا البيت دعامة الإسلام، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج، أو معتمر، كان مضمونا على الله، إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده رده بأجر وغنيمة.

النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله، الدرهم بسبعمائة ضعف.

رواه أحمد والطبرانى

تعجلوا الحج، فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له.

رواه أحمد والبيهقى

فرض رب العزة على المسلمين الحج مرة واحدة فى العمر، هى حجة الفريضة فمن زاد زيد فى أجره، فمن حج حجة فقد أدى فرضه، ومن حج الثانية فقد داين ربه، ومن حج الثالثة فقد حرم الله جسده على النار.

أما العمرة فهى سنة، فقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (أواجبة هى؟) قال: (قال: لا، وأن تعتمروا هو أفضل) وذهب الشافعى - رضى الله عنه - إلى أنها فرض، لقوله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة لله) وقد عطفت على الحج، وهو فرض، فهى فرض كذلك.

والحقيقة أن هذا الرأى الأخير له وجاهته، فإن كان من المفترض أن يذهب المسلم - ولو مرة واحدة - للحج، فإن المنطق أن لا يضيع هذه الفرصة التى ربما تأتى مرة واحدة فى العمر، فيؤدى عمرة فى هذه الحالة مع حجته، بالقِران أو التمتع.

على أية حال فإننا قبل أن نتحدث عن العمرة والحج ودعاء عرفة فإننى أقف أمام حديث سيد الخلق: (تابعوا بين الحج والعمرة...) لقد كنت مثل غيرى الذين لم يسبق لهم زيارة بيته الحرام أعجب لهؤلاء الناس الذين يذهبون فى كل عام لحج أو عمرة، أو يذهبون أكثر من مرة فى العمر، أو فى العام الواحد، لكننى عندما ذهبت للمرة الأولى رأيتنى لا أستطيع البعد عما كنت أعيب عليه الآخرين، بل كلما ذهبت ازددت شوقا وتعلقا بالبيت الحرام.

ولعلى كنت أراجع نفسى أسائلها، لماذا لا تخصص هذه الأموال التى تنفق فى العمرة والحج – بعد أداء الفريضة – للفقراء والمحتاجين؟ هذا سؤال ربما يبرز لك، أو يواجهك به أحد من المتسائلين؟

وقد وجدت الإجابة فى حديث سيد الخلق – صلى الله عليه وسلم – لقد قال: (تابعوا بين الحج والعمرة) هذا أمر واجب التنفيذ، لكن تفسير هذا الأمر وتبريره وذكر سببه هو المهم هنا (فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد..).

لاحظ أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قدم نفى الفقر على غفران الذنوب، فهل غفران الذنوب وحطها أهم من الغنى، أم العكس؟ المفترض أن تكون الإجابة بنعم، ولكن لماذا قدم الفقر على الذنوب؟ أو بمعنى آخر، كيف ينفى الحج والعمرة الفقر، مع أن فيهما إنفاقا للمال الكثير، مما يجعل بعضنا يضن بهذه الأموال، صارفا لها فى بنود ومصارف يراها أهم من الحج والعمرة؟؟.

أما أنهما – الحج والعمرة – ينفيان الذنوب فكل شيء يتم بإرادة الخالق وليس المخاليق، فإن أراد، غفر وأغنى وأعطى، وإن شاء لم يغفر ومنع وأفقر.

لكن تعال – أيها القارئ – لنرى كيف ينفى الحج والعمرة الفقرَ؟ إذا افترضنا أن عدد الحجاج مثلا خمسة ملايين حاج، وفى شهر رمضان مثلا خمسة ملايين معتمر، وفى بقية أشهر العام من خمسة ملايين معتمر إلى عشرة معنى هذا أن الحجاج، والمعتمرين على مدار العام، يمكن أن يصل عددهم إلى خمسة عشر مليونا على الأقل، وإذا كان متوسط إنفاق كل حاج أو معتمر مالا يقل عن ألف جنيه مصرى، فإن مجموع ما ينفقه حجاج البيت الحرام وعماره لا يقل عن خمسة عشر مليار جنيه، هذه المليارات كلها توزع على المسلمين فى جميع أقطارهم، وربما غيرهم، كيف؟؟.

إنك عندما تذهب إلى بيت الله الحرام فأنت أولا تذهب إلى الميناء أو المطار هذه السيارة التى تحملك وأمتعتك يأخذ صاحبها جزءا من مال الحج أو العمرة، شركة الطيران أو العبارات أو الأتوبيسات التى تحمل الناس إلى أرض الحجاز هى الأخرى تستفيد، كل قرش تصرفه وتنفقه فى مأكل أو ملبس أو مسكن هناك يعود نفعه على المسلمين، من المصريين أو السودانيين أو السعوديين، أو الهنود أو البنغاليون، أو ..... أو ..... كى تعود كل هذه الأموال إلى المسلمين مرة أخرى.

إن الله سبحانه وتعالى - قد حرم كنز المال، وحث على الإنفاق فى كل وجوه الخير للمنفق والمجتمع على السواء، وليس المقصود بدعوة الإسلام إلى إنفاق المال إنفاقه فى الصدقات والزكوات، وإنما الإنفاق فى كافة وجوهه وقصد هذا الدين أن لا يحتكر الأغنياء - أو فئة فى المجتمع - فقط الأموال والخيرات بل تدور وتتداول داخل المجتمع كله:

ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم.

٧٠٠٠/ الحشر.

ويقول أيضا فى سورة التوبة:

يا أيها الذين أمنوا، إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون. الآيتان ٣٤،٣٥.

إذن أكل أموال الناس، أو ارتزاق الناس من بعضهم، أو عن طريق بعضهم، ليس من الحرام، وإنما الحرام هنا أكل أموال الناس بالباطل وفى نفس الوقت استخدام هذه الأموال ليس لمنفعة الفرد والمجتمع، ولكن للصد عن سبيل الله، ودين الله، وفى النهاية كنز الذهب والفضة أى حبسهما عن الإنفاق فى سبيل الله وعن منفعة الخلق.

إن كانز المال لا ينتفع به فى الدنيا، وسيكون وبالا عليه فى الآخرة فسوف يحمى عليها أولا، وأين يحمى عليها؟ فى نار ليست كنيران الدنيا، إنها نار جهنم، وهى ما هيه، وما أدراك ما هيه نار حامية، بعد أن يحمى على هذى الأموال فى نيران جهنم، هنا تكون جاهزة، معدة ومستعدة كى تكوى جباه من كنزوها فى الدنيا فحبسوها عن منفعة أنفسهم، وعن منافع الخلق.

نعود إلى موضوع الإكثار من الحج والعمرة فنرى أنها من أهم أبواب سعة الرزق، يعرف هذا كل من جرب، أمامن لم تسعده الأيام بزيارة بيت الله فقد يرى فى هذا الإكثار نوعا من السرف، وإنفاق المال فى غير وجهه، فلا يعرف الشوق إلا من جرب وكابد.

فإن ذهب الإنسان مرة، فإن يصبح فى شوق للزيارة مرة أخرى، وكلما ذهب إلى عمرة أو حج، ازداد تعلقه بالبيت والحرم، مصداقا لقول الله تعالى عن دعوة أبى الأنبياء، إبراهيم –عليه السلام–:

وإذ قال إبراهيم: رب اجعل هذا البلد آمنا، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ... ربنا: إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون. ٣٥، ٣٧ الأنبياء.

إذن فقد اقتضت إرادة الخالق أن تهوى أفئدة المسلمين إلى بيت الله الحرام زوارا ومعتمرين وحجاجا، ولأن الذهاب إلى هناك ربما يكلف من الأموال الكثير والكثير، مما يجعل بعض الناس يضن بهذه الأموال ، وهنا

يطمئن سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم - هؤلاء الخائفين الضانين بما تحت يدهم من مال، بقوله: (تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب).

فكيف يكون إنفاق المال فى الحج والعمرة سبيلا إلى نفى الفقر ومحاربته؟ انظر إلى قول الله تعالى: (وما آتيتم من زكاة، تريدون وجه الله، فأولئك هم المضعفون). ٣٩ الروم.

أى الذين يضاعف الله لهم الثواب فى الدنيا والآخرة، ويبارك فى هذى الأموال التى يخرج المسلم زكاتها، ولا ينسى المرء أن الزكاة معناها فى اللغة: (البركة والنماء[١]) فالفعل زكّى - ومصدره زكاة -هو بمعنى نما وزاد، وهكذا.

أداء العمرة:

كيف يمكن أداء العمرة، وما هى الخطوات التى يقوم بها المعتمر؟

١- الإحرام: وهو نية العمرة - أو الحج - من الأماكن التى حددها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكل قوم[٢]، فنحن المصريين ميقات إحرامنا قبل رابغ، وهى منطقة فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة، وعليه فإن من يسافر من مصر من طريق البحر، فإنه يحرم قبل أن تصل به العبارة إلى محاذاة الميقات، وتنبه قيادة العبارة المعتمرين والحجاج إلى الوقت المحدد الذى سوف تصل العبارة فيه بمحاذاه الميقات، محددة ساعة معينة على الركاب الإحرام قبلها.

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: (ز ك ى).

(٢) انظر صحيح البخارى، كتاب الحج، باب مُهَلّ أهل مكة للحج والعمرة.

أما ركاب الطائرة من المصريين أو الذين يسافرون من مصر فإن عليهم الإحرام بمجرد ركوب الطائرة، بل ربما كان من الأفضل الإحرام قبل ركوب الطائرة، لأن السفر من مصر إلى جدة يستغرق ساعتين، أو أقل، مما يجعل من المهم الإسراع بالإحرام، بمجرد ركوب الطائر، أو فور إقلاع الطائرة من مصر (١).

وعند الإحرام بالعمرة - أو الحج -يقوم المسلم بنظافة كاملة، تقليم الأظافر، وقص الشارب، وحلق الشعر الزائد فى الجسم، مثل شعر العانة وتحت الإبط، والاغتسال .... والنظافة التامة بشكل عام، ثم التطيب، وصلاة ركعتين ينوى بهما سنة الإحرام.

وأهم من ذلك كله أن يتجرد المسلم من ملابسه المخيطة كلها، وارتداء لبس الإحرام، وهو رداء يلف حول الجزء الأعلى من الجسم، دون تغطية الرأس، وإزار يلف به النصف الأسفل من جسم الرجل، أما المرأة فتلبس الملابس العادية، وإنما لبس الإحرام، الإزار والرداء للرجل فقط وليس للمرأة.

٢- وعندما يصل المعتمر إلى مكة وهو مرتد لبس الإحرام فإنه يذهب إلى السكن الذى ينزل فيه لوضع حاجياته، لأنه لا يسمح لأحد بدخول شيء من الحاجيات معه إلى المسجد الحرام.

---

(١) أما المسافر من مصر من طريق البر، فإنه سوف يذهب إلى المدينة المنورة أولا للزيارة، ثم يتوجه إلى مكة ليحرم من مسجد أبيار علي، خارج المدينة.

بعد ذلك يتوجه إلى الكعبة، فيبدأ بالطواف، سبع مرات، بادئا من الحجر الأسود، أو بمحاذاته، وبعد الطواف يتوجه المعتمر إلى مقام[1] إبراهيم القريب من الكعبة، من جهة بابها كي يصلى ركعتين سنة الطواف، ثم يذهب إلى زمزم القريب من مقام إبراهيم.

وماء زمزم له طعم خاص يعرفه من جربه، لا مثيل لهذا الطعم فى أى ماء آخر، يشربه المرء فى أى مكان فى هذه الدنيا، ومهما شرب المرء منه فإنه لا يشبع ولا يمل، ولا يتعب، ومن العجيب أنه إذا نقل إلى مكان آخر غير مكانه تغير طعمه واختلف - فسبحان الله العلى العظيم - فإن إرادة الله والمشيئة قد شاءت -فيما يبدو - وأرادت أن يذهب الناس إلى زمزم فى مكانها لا أن تذهب هى إلى الناس فى بلادهم ومنازلهم.

والناظر إلى ماء زمزم يعجب كيف تكفى المياه هذا العدد غير المحدود على مدار التاريخ، ولا ينضب البئر، ولا يغيض، وأعتقد أن حجا أو عمرة بدون زمزم، ومائها العذب لا يمكن أن يتصوره متصور، ولا يتخيله خيال متخيل، إذ كيف يكون حال الزوار والعمار والحجاج فى شدة الحر فى مكة بدون ماء زمزم؟ لا شك أن هذا الماء الزلال لم يكن إنقاذاً لنبى الله سماعيل وأمه بقدر ما كان انقاذاً لكل من ذهب إلى البيت الحرام، بل قل هى كرامة للحجيج والمعتمرين والزائرين لبيت الله الحرام.

---

(١) فإذا لم يستطع بسبب الزحام صلى فى أى مكان آخر يتيسر له، وكذلك بالنسبة للحجر الأسود، فإنه إن لم يستطع الوصول إليه واستلامه، أشار إليه من بعيد.

يقول سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم:

خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام الطعم، وشفاء السقم.

رواه الطبراني في الكبير.

ماء زمزم لما شرب له، وهذا أشربه لعطش يوم القيامة.

رواه أحمد

وجاء رجل إلى ابن عباس فدار بينهما الحوار التالي:

ابن عباس : من أين جئت؟

الرجـــل : شربت من ماء زمزم.

ابن عباس : أشربت منها كما ينبغى؟

الرجـــل : وكيف ذاك، يا ابن عباس؟

ابن عباس : إذا شربت منها فاستقبل القبلة، واذكر الله، وتنفس ثلاثا وتضلع[1] منها، فإذا فرغت فاحمد الله، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال: آية ما بلينا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم.

رواه ابن ماجة

وبعد الشرب من زمزم تذهب إلى حجر اسماعيل، عند الحطيم[2] وهو سور قصير، على هيئة قوس أو نصف دائرة، إلى جهة الميزاب الذى ينزل عن طريقه الماء من سطح الكعبة المشرفة.

---

(١) اشرب كثيرا واشبع، حتى تحس كأن الماء لكثرة شربك له قد وصل إلى ضلوعك.

(٢) سمى بالحطيم، لانه محطم، غير مكتمل.

٣- السعى بين الصفا والمروة: يتوجه المعتمر إلى الصفا، وهى بمحاذاة الحَجَر، ويبدأ السعى منها، حتى يتم سبعة أشواط، كما فعلت هاجر عليها السلام - عندما كانت تهرول باحثة عن ماء تروى عطش ولدها إسماعيل حتى أكرمها الله، وأكرم المسلمين جميعا بماء زمزم.

وبعد الانتهاء من السعى، فى شوطه السابع والأخير، يحلق الرجل، أو يقصر شيئا من شعره، ولا تحلق المرأة، بل تقصر فقط، ثم يتحلل المعتمر من إحرامه، فيلبس ما يشاء من الثياب، ويباح له كل ما محرما عليه أثناء الإحرام من الطيب وتقليم الأظافر ... وغير ذلك مما يحل للمسلم.

أداء الحـــــج:

يتم أداء الحج بثلاثة طرق، الإفراد والقران والتمتع، فالإفراد أن يذهب المسلم للحج فقط، دون عمرة، فينوى الحج فقط، أما القران فهو أن يقرن الحج بالعمرة، أى ينوى أداء حج وعمرة فى ذات الوقت، أما التمتع فهو نية العمرة أولا، وأداؤها بمجرد الوصول إلى مكة، ثم بعد الانتهاء من العمرة يتحلل المرء من قيود الإحرام إلى أن يأتى يوم الثامن من ذى الحجة ليحرم من جديد، ولكن بنية الحج هذه المرة، وليس العمرة.

وسميت هذه الحالة بالتمتع لأن المرء يتمتع بالتحلل من قيود الإحرام بعد الانتهاء من العمرة إلى يوم الثامن من ذى الحجة، وعليه فى هذه الحالة لقاء ما تمتع به، عليه هدى يذبحه، وأكثر الناس يختارون التمتع على الإفراد

والقران، وكلّ صحيح مباح للحاج، ولكن لا هدى على المفرد، بل على المقرن والمتمتع.

وسنذكر طريقة الحج للمتمتع التى تكون كالأتى:

١- **العمـــرة** : يعتمر الحاج بالطريقة السابقة، ثم يتحلل من إحرامه حتّى يأتى يوم الثامن ليحرم بالحج.

٢- **إحرام الحج** : فى الثامن من ذى الحجة يحرم الحاج إن كان متمتعا ويسمى هذا اليوم بيوم التروية، لأن الحجاج كانوا يأخذون حاجتهم من الماء إلى المشاعر فى منى وعرفات والمزدلفة فى هذا اليوم.

ويذهب الحاج فى يوم الثامن إلى منى، يبيت فيها ليلته، وتبعد عن مكة حوالى ٦ كم، وفى يوم التاسع يتوجه من منى إلى عرفات، يبقى فيها إلى غروب الشمس، بعدها يتوجه الحاج إلى المزدلفة، يصلى المغرب والعشاء ويجمع ٤٩ حصاة، إذا كان سيقيم فى منى يومين، فإن كان سيبقى ثلاثة أيام فليجمع ٧٠ حصاة، وتبقى فى المزدلفة إلى منتصف الليل، أو إلى الفجر، كما فعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم السير إلى منى.

٣- **رمى الجمرات** : بمجرد وصول الحاج إلى منى فى أول أيام عيد النحر يذهب إلى منطقة الجمار لرمى جمرة العقبة قبل زوال الشمس، وهى سبع حصيات، وتذكر أن المتمتع عليه هدى، وكذلك القارن، ومن هنا يذهب الحاج لشراء الهدى وذبحه، ويفضل أن يدفع الحاج ثمن الهدى

إلى أحد البنوك المعتمدة، المنتشرة أكشاكها فى الشوارع، وذلك بمجرد الوصول إلى مكة.

وبعد ذلك يحلق الحاج أو يقصر، عندها يحل له كل شىء، من لبس المخيط وغيره، ويخلع ملابس الإحرام، لكن لا تحل له النساء، وفى هذه الحالة يمكن أن يعود إلى مكة لأداء طواف الإفاضة، أو تركه إلى أن يعود من منى بعد رمى الجمار كلها، فى ثلاثة أيام، أو لمن تعجل فى يومين.

وفى ثانى أيام العيد يرمى الجمار الثلاثة، الصغرى والوسطى والكبرى= ٢١ حصاة، وفى ثالث أيام العيد يفعل ما فعل فى اليوم السابق، فإن بقى يوما آخر، غير متعجل، فعل الشىء نفسه.

وإذا لم يكن الحاج قد ذهب إلى مكة لطواف الإفاضة، فيلطف، ثم يصلى ركعتين فى مقام إبراهيم، أو أى مكان آخر، ثم يشرب من زمزم بعدها يسعى بين الصفا والمروة، عندها ينتهى الحج بالنسبة للمتمتع، ويحل له كل شىء.

وعند مغادرة مكة تذهب لطواف الوداع، ثم تصلى ركعتين، وتأتى الملتزم فتدعو الله بما تشاء، ثم تترك مكة إلى المدينة لزيارة قبر الرسول[1] صلى الله عليه وسلم - إذا لم تكن زرتها قبل العمرة أو الحج.

---

(١) قال -صلى الله عليه وسلم: (من حج ولم يزرنى، فقد جفانى) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا خلاصة ما تفعله عند العمرة والحج، وعلى المسلم قبل السفر إلى الحرمين أن يقرأ عن شعائر الحج والعمرة، وأن يفهم ماذا يفعل، وما هى الخطوات التى سيتبعها للإفادة من هذه الرحلة الإيمانية.

وفى كل مكان، تذهب إليه تدعو بما يفتح الله عليك من دعاء، ولكن لا بأس أن يكون معك كتاب تدعو الله بما فيه، أو تجمع بين الشيئين، أى الاستعانة بأدعية الكتب، وبما يراه المسلم من أدعية أخر.

وأقدم للقارى دعاء يوم عرفة، قبلها نذكر بعض الأحاديث فى فضل هذا اليوم:

قال رسول الله -صلى اله عليه وسلم: (ما من يوم عند الله أفضل من عشر ذى الحجة) فقال رجل: (هن أفضل، أم من عدتهن جهادا فى سبيل الله؟) قال: (هن أفضل من عدتهن جهادا فى سبيل الله، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله - تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيباهى بأهل الأرض أهل السماء، فيقول: انظروا إلى عبادى، جاءونى شعثا غبرا ... جاءونى من كل فج عميق، يرجون رحمتى، ولم يروا عذابى، فلم يُرَ يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة)

رواه ابن خزيمة وابن حبان

وقف النبى -صلى الله عليه وسلم- بعرفات، وقد كادت الشمس أن تئوب، فقال: (يا بلال، أنصت لى الناس) قال: (معشر الناس، أتانى جبريل -عليه السلام - آنفا، فأقرأنى من ربى السلام وقال: إن الله -عز وجل- غفر

لأهل عرفات، وأهل المشعر الحرام، فقام عمر بن الخطاب: (يا رسول الله هذا لنا خاصة) قال: (هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة) فقال عمر: (كثر خير الله وطاب).

ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو - عز وجل- ثم يباهى بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟).

رواه مسلم

ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر، ولا أدحر، ولا أغيظ منه فى يوم عرفة.

رواه مالك

والدعاء الذى نقدمه لقارئنا الكريم قطعة أدبية راقية، مؤثرة موحية شديدة التأثير فى النفس، لم يقرؤه أحد يوم عرفة، فى هذا الموضع المبارك دون أن يبكى، وقد قدمناها[1] للقارئ دون تعليق، رجاء قراءتها بفكر واع وتمعن وتفكر:

---

(١) استعنا فى كتابة هذه المقدمة عن شعائر العمرة والحج بصحيحى البخارى ومسلم، وكتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق، الجزء الخامس، وكذلك كتاب مناسك الحج تأليف الفريق عبد الرحمن محمد أمين، والعميد صلاح الدين محمد عطية، نشر بالقاهرة ١٩٧٣م، وقد نقلنا عنه نص دعاء عرفة بعد مراجعته مراجعة دقيقة، ولكن المؤلفين لم يذكرا من أين أخذا هذا الدعاء الطويل الجليل الجميل.

لاإله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىءقدير، اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى، وإليك مآبى، ولك رب تراثى

اللهم إنك وفقتنى وحملتنى على ماسخرت لى حتى بلغتنى بإحسانك إلى زيارة بيتك، والوقوف عند هذا المشعر العظيم، اقتداء بسنة خليلك، واقتفاء بآثار خيرتك، سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وإن لكل ضيف قرى، ولكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولكل راج ثواباً، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل راغب إليك زلفة، ولكل متوجه إليك إحسانا وقد وقفنا بهذا المشعر العظيم، رجاء لما عندك، فلا تخيب إلهنا رجاءنا فيك يا سيدنا، يا مولانا يا من خضعت كل الأشياء لعزته، وعنت الوجوه لعظمته.

اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا، وإياك أملنا وما عندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا، ولرحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا، ولبيتك الحرام حججنا، يامن ليس معه رب يدعى، ولا إله يرجى، ولا فوقه خالق يخشى ولا وزير يؤتى، ولا حاجب يرشى، يامن لا يزداد على السؤال إلا كرماً وجوداً، وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلاً وإحسانا، يا من ضجت بين يديه الأصوات بمختلف اللغات، يسألونك الحاجات، وسكبت الدموع بالعبرات والزفرات، ملحين بالدعوات، فحاجتى إليك -يارب- مغفرتك، ورضاء منك على، لا سخط بعده، وهدى لا ضلال بعده، وعلما لا جهل بعده، وحسن

الخاتمة والعتق من النار، والفوز بالجنة، وأن تذكرنى عند البلاء، إذا نسينى أهل الدنيا وواروني التراب، وانقطع عنى الأحباب، وتقطعت بى الأسباب، يا عزيز، يا وهاب، يا أرحم الراحمين.

اللهم إنك ترى مكانى، وتسمع كلامى، وتعلم سرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا البائس الفقير، المستغيث الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسأله المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضع لك عنقه، وذل لك جسده وفاضت لك عيناه، ورغم لك أنفه، لا تجعلنى بدعائك -رب- شقيا، وكن بى رءوفاً رحيماً، ياخير المسئولين، ويا خير المعطين، رب اهدنا بالهدى، وزينا بالتقوى واغفر لنا فى الآخرة والأولى، اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى سمعى نوراً، وفى بصرى نوراً، وفى لسانى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن يسارى نوراً، ومن فوقى نوراً، ومن تحتى نوراً، ومن أمامى نوراً، ومن خلفى نوراً واجعل لى فى نفسى نوراً، وأعظم لى نوراً، رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى.

اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيراً مما نقول، اللهم إنى أسألك رضاك والجنة، وأعوذ بك من سخطك والنار، وما قرب إليها من قول أو فعل أو عمل، اللهم اجعله حجا مبروراً وذنباً مغفوراً وعملاً صالحاً مقبولاً، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، إلهى لا قوة لى على سخطك، ولا صبر لى على عذابك، ولا غنى لى عن رحمتك، ولا قوة لى على البلاء، ولا طاقة لى على

الجهد، أعوذ برضاك من سخطك، ومن فجاءة نقمتك، يا أملى، ويا رجائى، يا خير مستغاث، يا أجود المعطين، يا من سبقت رحمته غضبه، ياسيدى ومولاى، يا ثقتى ورجائى ومعتمدى.

اللهم يامن لا يشغله سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، ولا تعجزه مسألة السائلين، أذقنا بر عفوك، وحلاوه مغفرتك، يا أرحم الراحمين اللهم إنى قد وفدت إليك، ووقفت بين يديك، فى هذا الموضع الشريف، رجاء لما عندك، فلا تجعلنى اليوم أخيب وفدك، فأكرمنى بالجنة، ومُنّ علىّ بالمغفرة والعافية، وأجرنى من النار وادرأ عنى شر خلقك، انقطع الرجاء إلا منك وأغلقت الأبواب إلا بابك، فلا تكلنى إلى أحد سواك فى أمور دينى ودنياى طرفة عين ولا أقل من ذلك، وانقلنى من ذل المعصية إلى عز الطاعة، ونور قلبى وقبرى وأعذنى من الشر كله، واجمع لى الخير كله، يا أكرم من سئل وأجود من أعطى.

اللهم بنورك اهتدينا، وبفضلك استغنينا، وفى كنفك وانعامك وعطائك وإحسانك أصبحنا وأمسينا، أنت الأول فلا شىء قبلك، والآخر فلا شىء بعدك والظاهر فلاشىء فوقك، والباطن فلا شىء دونك، نعوذ بك من الفلس والكسل وعذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، وفتنة الغنى، وأسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

اللهم يا عالم الخفيات، ويا سامع الأصوات، يا باعث الأموات، يا مجيب الدعوات، يا قاضى الحاجات، يا خالق الأرض والسموات، أنت الله الذى لاإله إلا أنت، الواحد الأحد الفرد الصمد الوهاب الذى لا يبخل، والحليم الذى لا يعجل لا راد لأمرك، ولا معقب لحكمك، رب كل شىء ومليك كل شىء ومقدر كل شىء، أسألك أن ترزقنى علما نافعا، ورزقاً واسعاً، وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً، وعملاً زكياً، وإيماناً خالصاً، وهب لنا إنابة المخلصين، وخشوع المحسنين، وأعمال الصالحين، ويقين الصادقين، وسعادة المتقين، ودرجات الفائزين، يا أفضل من قصد وأكرم من سئل، وأحلم من أغضى، ما أحلمك على من عصاك، وأقربك إلى من دعاك، وأعطفك على من سألك، لا مهدى إلا من هديت، ولاغنى إلا من أغنيت، ولا فقير إلا من أفقرت، ولامعصوم إلا من عصمت، ولا مستور إلا من سترت، أسألك أن تهب لنا جزيل عطائك والسعادة بلقائك، والمزيد من نعمك، وآلائك وأن تجعل لنا نوراً فى حياتنا ونوراً فى مماتنا، ونوراً فى قبورنا، ونوراً فى حشرنا، ونوراً نتوسل به اليك ونوراً نفوز به لديك، فإنا ببابك سائلون، وللقائك راجون.

اللهم اجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم لقائك، اللهم ثبتنى بأمرك، وأيدنى بنصرك، وارزقنى من فضلك، ونجنى من عذابك يوم تبعث عبادك، فقد أتيتك لرحمتك راجياً، وعن وطنى نائياً، ولنسكى مؤدياً، ولفرائضك قاضياً، ولكتابك تالياً، ولك داعياً، ومن قسوة قلبى شاكياً ومن ذنبى خاشياً، ولنفسى ظالماً، وبجرمى عالماً، دعاء من جمعت عيوبه وكثرت ذنوبه، وتصرمت آماله، وبقيت آثامه، وانسكبت دمعته، وانقطعت

مدته، دعاء من لايجد لذنبه غافراً غيرك، ولا لمأموله من الخيرات معطياً سواك، ولا لكسره جابراً إلا أنت، يا أرحم الراحمين، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

اللهم لا تقدمنى لعذابك، ولا تؤخرنى لشىء من الفتن، يا مولاى، فها أنا أدعوك راغباً، وأنصب إليك وجهى طالباً، وأضع لك خدى مهيناً راهباً، فتقبل دعائى، وأصلح الفاسد من أمرى، واقطع من الدنيا همى وحاجتى، واجعل فيما عندك رغبتى، وأقلبنى منقلب المذكور عندك دعاؤهم، القائمة حجتهم المغفور ذنبهم، المبرور حجهم، المحطوط خطاياهم، الممحو سيئاتهم، الراشد أمرهم، منقلب من لا يعصى لك أمراً، ولايأتى بعده مأثما، ولايحمل بعده وزراً، منقلب من عزرت بذكرك لسانه، وطهرت من الأدناس بدنه، واستودعت الهدى قلبه، وشرحت بالإسلام صدره، وأقررت برضاك وعفوك قبل الممات عينه، وغضضت عن المأثم بصره، واستعملت فى سبيلك نفسه وأسألك أن لا تجعلنى أشقى خلقك المذنبين عندك، ولا أخيب الراجين لديك ولا أحرم الآملين لرحمتك، ولا أخسر المنقلبين من هذا الموقف العظيم مولاى رب العالمين.

اللهم وقد دعوتك بالدعاء الذى علمتنيه فلا تحرمنى الرجاء الذى عرفتنيه، يامن لا تنفعه الطاعه، ولاتضره المعصية، وما أعطيتنى مما أحب فاجعله لى عوناً فيما تحب، واجعله لى خيراً، وحبب طاعتك لى، والعمل بها كما حببتها إلى أوليائك، حتى رأوا ثوابها، وكما هديتنى للإسلام، فلا تنزعه منى، حتى تقبضنى إليك، وأنا عليه.

اللهم حبب إلى الإيمان، وزينه فى قلبى، وكره إلى الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنى من الراشدين، اللهم اختم بالخيرات آجالنا، وحقق بفضلك آمالنا، وسهل لبلوغ رضاك سبلنا، وحسن فى جميع الأحوال أعمالنا، يا منقذ الغرقى، يامنجى الهلكى، يا شاهد كل نجوى، يا منتهى كل شكوى، يا قديم الإحسان، يا من رزق كل شيء عليه، ومصير كل شيء إليه، إليك رفعت أيدى السائلين، وامتدت أعناق العابدين، نسألك أن تجعلنا فى كنفك وجودك وحرزك وعياذك وسترك وأمانك، اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء وشماته الأعداء، وسوء المنظر، والمنقلب فى الأهل والمال والولد، اللهم لاتدع فى مقامنا هذا ذنباً إلاغفرته، ولاهما إلا فرجته ولاغائباً إلا رددته، ولا كرباً إلا كشفته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا عدواً إلا كبتّه ولا خلّة إلا سددتها، ولا فساداً إلا أصلحته، ولا مريضاً إلا عافيته، ولا حاجةً من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضا ولنا فيها صلاح إلا قضيتها فإنك تهدى السبيل، وتجبر الكسير، وتغنى الفقير.

اللهم إنه لابد لنا من لقائك، فاجعل عندك عذرنا مقبولاً، وذنبنا مغفوراً وعلمنا وسعينا مشكوراً، أصبح وجهى الفانى مستجيراً بوجهك الباقى القيوم ذى العزة والجبروت، اللهم لا يمنعنى منك أحد إذا أردتنى، ولا يعطينى أحد إذا حرمتنى، فلا تحرمنى بقلة شكرى، ولا تخذلنى بقله صبرى .

اللهم اجعل الموت خير غائب ننتظرة والقبر خير بيت نعمره واجعل ما بعده خيراً لنا منه، رب اغفرلى ولوالدى ولأبنائى ولإخوتى ولأخواتى ولإخوانى وأهل بيتى وذريتى، وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات

الأحياء منهم والأموات، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى، ورضنى بقضائك، وأعنى على الدنيا بالعفة والقناعة وعلى الدين بالطاعة، وطهر لسانى من الكذب، وقلبى من النفاق، وعملى من الرياء، وبصرى من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

اللهم ارحم غربتى فى الدنيا، ومصرعى عند الموت، ووحشتى فى قبرى ومقامى بين يديك، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى، فاغفرلى ذنوبى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق، فلا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله بيديك، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم أحينى ما علمت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى وإهدنى لأرشد أمرى، وأجرنى من شر نفسى، اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا، وعذاب الاخرة، وارحم غربتى فى الدنيا ومصرعى عند الموت، ووحدتى فى القبر، ومقامى بين يديك، اللهم إنى أسألك باسمك الطيب الطاهر المبارك الأحب إليك، الذى إذا دعيت به أجبت، وإذا استرحمت به رحمت، وإذا استفرجت به فرجت، أن تعيذنى من الكفر، والفقر والقلة والذلة والعلة، وكافة الأمراض، وسائر الأسقام والالام، وأسألك فواتح الخير، وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره وظاهرة وباطنة والدرجات العلى.

اللهم إنى أسألك فرجاً قريباً، ونصراً عزيزاً وصبراً جميلاً، وفتحاً مبيناً وعلماً كثيراً، نافعاً ورزقاً مباركاً فى عافية، بلا بلاء، وأسألك العافية من كل

بلية وأسألك تمام العافية، والشكر على العافية، اللهم اقسم لـى مـن خشـيتك مـا تحول به بينى وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنى بـه جنتـك، ومـن اليقيـن ممـا تهـون بـه علـى مصـائب الدنيـا، ومتعنـى اللهـم بسـمعى وبصـرى وبدنـى واجعلهما الوارث منى، واجعل ثأرى على من ظلمنـى، وانصرنـى علـى مـن عادانى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا مبلغ علمى، ولا إلى الناس مصـيرى إلهى إنى أسألك إنابة كاملة، ومحبـة غالبـة، وشـوقاً إليـك، ورغبـة فيمـا لديـك وفرجاً عاجلاً، ورزقاً واسعاً، ولساناً رطباً بذكرك، وقلباً مفعماً بشكرك، وبدنـاً هيناً ليناً بطاعتك، وأعطنا ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطـر علـى قلب بشر.

اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، ومن الخـوف إلا منـك، وأعـوذ بـك أن أقـول زوراً، أو أغشـى فجـوراً، أو أكـون بـك مغـروراً ونعوذ بك من شماتة الأعـداء، وعضـال الـداء، وخيبـة الرجـاء، وزوال النعـم وفجاءة النقم ومن شر ما تهب به الرياح، يـا مـن فتـح بابـه للطـالبين، وأظهـر غناه للراغبين، وأطلق ألسنة القـاصرين، ألهمنـا مـا ألهمـت عبـادك الصـالحين وأيقظنا من رقدة الغافلين، إنك أكرم منعم وأعز معين.

اللهـم إن عيوبنـا لايسـترها إلا محاسـن عطفـك، وذنوبنـا لا يغفرهـا إلا واسع إحسانك، وعفوك، واجعلنا من المتقين الأبرار، واسلك بنا سـبيل عبـادك الأخيار، وألهمنا رشدنا، وأجزل من رضوانك حظنا، ولا تحرمنا بذنوبنـا، ولا تطردنا بعيوبنا، ولا تقطعنا من برك، ولا تنسنا ذكرك، ولا تهتـك عنـا سترك واغفر لنا مااقترفناه من ذنوبنـا، واعـف عـن تقصيرنـا فـى طـاعتك، وشـكرك

وأدم لنا لزوم الطريق إليك، وهب لنا نوراً نهتدى به إليك، وارزقنا حلاوة مناجاتك، واسلك بنا سبيل مرضاتك، واقطع عنا كل ما يبعدنا عن خدمتك وطاعتك، وأنقذنا من دركاتنا وغفلاتنا وألهمنا رشدنا، وحقق فيك قصدنا واسترنا فى دنيانا وآخرتنا، واحشرنا فى زمرة المتقين، وألحقنا بعبادك الصالحين.

اللهم اجعلنا من الأئمة الأبرار، وأسكنا معهم فى دار القرار ولا تجعلنا من المخالفين الفجار، ووفقنا لحسن الإقبال عليك، والإصغاء إليك والمبادرة إلى خدمتك، وحسن الأدب فى معاملتك، والتسليم لأمرك والرضا بقضائك والصبر على بلائك، والشكر لنعمائك، وأعذنا من أحوال الشقاء، ووفقنا لأعمال أهل التقى، وارزقنا الاستعداد ليوم اللقاء، يا من عليه الاعتماد والمتكل.

اللهم انهج بنا مناهج المفلحين، وألبسنا خلع الإيمان واليقين، وخصنا منك بالتوفيق المبين، ووفقنا لقول الحق واتباعه، وخلصنا من الباطل وابتداعه وكن لنا مؤيداً، ولا تجعل لفاجر علينا يداً، واجعل لنا عيشا رغداً ولا تشمت بنا عدواً ولا حاسداً، وارزقنا علماً نافعاً، وعملاً متقبلاً، وفهما ذكيا وطبعاً صفياً، وشفاءً من كل داء.

اللهم عاملنا بغفرانك، وامنن علينا بفضلك وإحسانك، ونجنا من النار وعافنا من دار الخزى والبوار، وأدخلنا بفضلك الجنة، دار القرار، واجعلنا

من الذين أنعمت عليهم فى دار رضوانك، يا من ظهرت معرفته للقلوب، فلا يخفى وجوده، وعم جميع خلقه كرمه وجوده .

اللهم لا تجعل هذا آخر عهدى من هذا الموقف العظيم، وارزقنى الرجوع إليه مرات كثيرة بلطفك العميم، واجعلنى فيه مفلحاً مرحوماً مستجاب الدعاء فائزاً بالقبول والرضوان والتجاوز والغفران، والرزق الحلال الواسع وبارك لى فى جميع أمورى، وما أرجع إليه من أهلى ومالى وأولادى ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، واغفرلنا ولوالدينا ولوالدى والدينا وذريتنا وإخواننا وأهلينا، والحاضرين والغائبين، من المسلمين أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم آمين

اللهم آمين

اللهم آمين

كتـــــاب
(كيف نتذوق الأدب العربى)

للبروفيسور على نائبى سويد

قسم اللغة العربية جامعة بايرو- نيجريا

عرض وتحليل

- تتميز الفنون على اختلاف أنواعها بميزات خاصة ترجع إلى طبيعة الخلق الفنى والتشكيل الجمالى لجزئيات الواقع، أضف إلى ذلك أن لكل فن من الفنون ماهيته الخاصة، ووسيلته فى التشكيل، فالرسم وسيلته فى التشكيل هى توزيع الألوان، أما الأدب فوسيلته هى الكلمة، ولكنها ليست الكلمة بمعناها المعجمى، إنها الكلمة الشاعرة.

ومن هنا كان الأدب هو فن التعبير بالكلمة عن رؤية الأديب لواقعه، والأديب إذ يعبر عن هذا الواقع وخلقه من جديد من خلال مرآته هو، ويختار منه مايتلاءم مع رغبته فى الكشف عن هذه الرؤية، ولابد لنا أن نؤمن -من هذا المنطلق- بأن هذه الرؤية تكشف عن إدراك الأديب لعلاقات الواقع، كما تتضمن تخيله للصورة التى ينبغى أن تسود هذه العلاقات فى المستقبل وأن رؤية الأديب كلما كانت أكثر عمقا وحساسية وذكاء كانت أقدر على كشف القوى التى تعوق حركة الواقع وتقهر إنسانية الإنسان، كما أنها تصبح أقدر على تخيل طبيعة المستقبل الذى يحقق للإنسان إنسانيته.

ولابد أن نؤمن بأن أية دراسة تقوم بعيداً عن النص الأدبى لا يعتد بها، لأن النص الأدبى هو أصل العملية النقدية، إذ من خلاله يتعرف الناقد على رؤية الأديب للقضايا التى يطرحها كما يتعرف على هوية الأديب ومذهبه النقدى، والقوى التى تسهم فى توجيه رؤيته

للأشياء، كما يجب ألا نقلل من أثر الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى النص الأدبى، وذلك لأن الأديب قبل أى شىء إنسان يعيش فى مجتمع يتفاعل مع باقى أعضائه باستمرار، وهكذا فإن ثمة علاقة بين النص الأدبى والمجتمع.

إننا نؤمن بأن تذوق النص الأدبى ليس مجرد رصد لعناصر البلاغة الشكلية من تشبيه ومجاز (استعارة-كناية) وإنما تذوق النص الأدبى يتعدى مثل هذه الأطر الشكلية، ليصل إلى البحث فى كنه النص وطبيعته، ليتعرف على القيم الجمالية والمثالية والمتغير والثابت فى رؤية الأديب من نص لآخر، إننا قد نشعر بأن الفن ذو طبيعة نفعية، لكن هذه الحقيقة يجب ألا تعمينا أوتشغلنا عن وظائف أهم وقضايا أعمق يمكن أن تكشف عنها الرؤى المتأنية للنص الأدبى.

الأدب تعبير عن حركة الواقع:

لا يوجد واقع بلاحركة، فطالما أسبغنا على كل ما يحيطنا من أشياء هذه السمة (الواقع) فلا بد أن تتميز بالديناميكية، وهذه الحركة ذات أطر مختلفة بعضها متفق وبعضها متعارض، ومن خلال هذا التوافق والتعارض تنشأ تغيرات وتحولات فى أبنية الواقع، ويصبح من الأمور الحتمية أن يتصدى لها الأديب بالمعالجة الفنية ليوقعنا على سلبيات الواقع وسبل علاجها، وكلما كان المجتمع ينعم بمزيد من الحركة كان الأدب أكثر ازدهارا وفعالية، وكلما كان العكس كان الأدب أكثر شحوبا وانتكاسا.

وسوف تجد فى كل النصوص التى اخترناها لك، نماذج حية على صدق هذا الادعاء، وسوف تجد فيها رؤى مختلفة، وقضايا متنوعة، لأننا نؤمن بأن النص الذى يخلو من قضية ليس نصا أدبيا يمكن أن نتعلم منه قيمة، ويمكن أن يصل بنا إلى هدف ننشده.

ويعتمد التذوق الأدبى للنص على إبراز رسالة الفنان التى يجب أن تصل إلى متلقيه، والشاعر الذى لانشعر من خلال شعره برائحة الإنسان ليس شاعرا على الإطلاق، ولقد حدد الأستاذ عباس محمود العقاد قيمة الشعر وكنه الشاعر العملاق فى قوله:

والشعر من نفس الرحمن مقتبس ∴ والشاعر الفذ بين الناس رحمن

كما يعتمد التذوق الأدبى على القراءة الجمالية للنص الشعرى، وهى القراءة التى تعطى لكل لفظة حقها من السمو والجلال، بحيث يشعر المرء عند قراءة النص الأدبى بأن ثمةِ فروقا جوهرية بينه وبين الكلام العادى، وكلما كانت تجربة الشاعر غير مفتعلة، كان الإحساس بهذه التجربة سهلا يسيرا.

وننبه إلى (أن المرء فى ميدان الشعر بحاجة إلى رائد ثقة، رجلُ رأى واستبان، ثم عاد، ولن يكون هذا الرائد إلا شاعرا، أما النقاد فهم كمن يضع خرائط لجبال العالم الذى يرودونه، غير أنهم هم أنفسهم لم يتسلقوا تلك الجبال قط) أرشيبالدماكليس، الشعر والتجربة- بيروت ١٩٦٣ ص ١٢.

إن الشعر يحلل التجارب الموجودة فى الحياة ويسمو بها، إنه يرينا اتجاه الحياة ولايمنحنا الحياة نفسها، لابد أن نؤمن بهذه المعانى ونحن نحاول تذوق النص الأدبى.

معطيات التذوق الأدبى:

انطلاقا من الأطر المطروحة -المذكورة أنفا- على ساحة الدرس يمكن تناول النص الأدبى من خلال البحث فى :

أ- الخيال الخلاق.

ب- القضايا الفكرية.

جـ- الصورة الشعرية.

أ- **الخيال** : ترجع قيمة الخيال وأهميته إلى أنه يهب الشعر تلك الروح الخلاقة وروح الإبداع ويبعث فى النفس ضروبا من التطلع والتشوق والارتباح والإثارة)[1].

وتعريف الخيال عسير لأن الكلمة تستعمل فى أنواع مختلفة من العمليات العقلية، وملكة الخيال غامضة لا يمكن معرفتها إنما معرفتها بأثرها، والصور التى يخلقها الخيال لا عداد لها[2].

والدكتور غنيمى هلال يرى (أن الخيال نوع من تصوير الحقيقة عن طريق المشابهة التى لاتزال تباشر سلطانها على العقل منذ لحظة إدراكها، وبهذا أصبح الخيال -فى مجاله الفنى- ذا مكانة تفوق قوة العقل الأخرى، على شرط أن تكون الصور التى ينتجها متسقة متآزرة، تتآلف على تصوير الحقيقة)[3].

وهكذا فإن الاراء مجمعة على أن الخيال عنصر حيوى وفعال من عناصر تشكيل الصورة الشعرية فى العمل الادبى، ولايمكن أن يتصور المرء عملا أدبياً يخلو من الخيال، ولوحدث ذلك، فإن النص الأدبى لن يرقى إلى مستوى التذوق الذى يشعرنا بقيمته كفن.

ب- **القضايا الفكرية** : انطلاقاً من أن النص الأدبى لايخلو من قضية اومشكلة يتصدى لها كانت القضايا الفكرية إحدى معطيات التذوق الفنى للنص الأدبى، فقد يعرض النص لقضايا القهر والحرية، والأخلاق، ولكن هذا العرض لا يكون بصورة تقريرية خطابية، وإنما يكون بطرق غير مباشرة، أقصد من خلال طرق فنية تعتمد الكلمة الشعرية أساساً للتعبير.

---

(١) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد العربى إلى نهاية القرن الرابع الهجرى دار المعارف مصر ١٩٦٤. ص٤١.

(٢) أحمد أمين: النقد الأدبى ص ٣٧، ٣٩.

(٣) محمد غنيمى هلال: النقد الأدبى الحديث ص ٤١٥.

وقد يلجأ الأديب فى ظل ظروف القهر والقمع إلى طرق رمزية يسقط من خلالها رؤيته للواقع وسبل الحل والعلاج للقضايا التى تعوق حركته وتقهر إنسانية الإنسان.

جـ- الصورة الشعرية : إيمانا من أنه لاشعر بلاصورة، وانطلاقا من قول الجاحظ (الشعر صياغة وضرب من التصور)، أوكما سماه أرسطاليس(فنا تصويريا)، فإن الصورة الشعرية هى (جوهر الشعر وأداته القادرة على الخلق والابتكار، والتحوير والتعديل لأجزاء الواقع، بل واللغة القادرة على استكناه جوهر التجربة الشعرية، وتشكيل موقف الشاعر من الواقع، وفق إدراكه الجمالى الخاص، وطريقة الشاعر فى تشكيله اللغوى الجمالى تمثل أسلوبه فى إدراك الواقع)(١).

وقد عرف أرشيبالدمكليش الصورة بأنها(القوة السحرية المؤلفة التى تطلق روح الإنسان جميعها إلى النشاط الحى، وجوهرها توازن الصفات المتنافرة لإشاعة الانسجام بينها، ففيها تنسيق فائق للعادة، وعمادها الترتيب اللفظى للكلمات، حتى تذكى العواطف، وتذكى المشاعر وتخلق عاطفة تتعلو على العواطف التى تثيرها إيقاعات الأبيات)(٢).

وهكذا فإن الصورة الشعرية تعبير قوامه الرسم بالكلمات، فقد تخلو الجملة الشعرية من المجاز، ولكنها فى مجموعها تشكل صورة شعرية.

---

(١) مدحت الجيار: الصورة الشعرية عند أبى القاسم الشابى. رسالة ماجستير بآداب القاهرة ١٩٧٨ ص ٤.

(٢) ارشيبالدمكليش: الشعر والتجربة: ص ٥٥،٥٤.

تقويم العمل الأدبى:

هناك طريقتان لتقويم أى نص أدبى، الأولى هى الطريقة التحليلية التفتيتية، ويعبر عنها النقاد بمصطلح وصف الأدب من الداخل، والطريقة الثانية هى الطريقة الوصفية وبتعبير النقاد وصف الأدب من الخارج.

وخشية الوقوع فى الاضطراب والارتباك بهذه المصطلحات فنحاول أن نتعرف على معنى هذه المصطلحات، ثم نناقش بعدئذ أهميتها.

إن النص الأدبى -أى نص- يتمتع باستقلاليته الخاصة دون ضرورة ارتباط ذلك النص بمؤلفه أوالزمن الذى كتب فيه أوالظروف الاجتماعية التى ولد فيها لأن المؤلف والزمن والظروف الاجتماعية عوامل مساعدة قد تعيننا على فهم النص الأدبى ولكنها لاتمثل النص نفسه ومعنى هذا أننا نستطيع -وكثيرا مانفعل- أن نقرأ نصا أدبيا دون الرجوع إلى سيرة المؤلف أودراسة تاريخ النص أوالظروف الاجتماعية التى ولد فيها وأحاطت به، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقرأ المرء عملا، ويصدر حكمه الذوقى بأن العمل ممتع أو بأن العمل جيد دون الرجوع إلى حياة المؤلف وسيرته والظروف التاريخية والاجتماعية التى أدت إلى ولادته باستثناء المتخصصين فى الدراسة الأدبية.

ومن هنا فإن الغالبية العظمى من القراء يقرءون النص الأدبى دون أن يرجعوا إلى المؤلف والزمن والظروف التى أحاطت بكتابة النص.

واستنادا إلى ذلك نستطيع القول إن النقد التطبيقى يمكن أن يستغنى عن التفاصيل الخارجية، لأنها ليست من لوازم النقد، وهذا النوع الذى يهدف إلى دراسة النص وتقويمه

دون الرجوع الى هذه التفاصيل الخارجية يسمى بالنقد التحليلي أو التفتيتي-وصف الأدب من الداخل- ووصف الأدب من الداخل معناه أننا نستطيع أن نتحدث عن النص باللجوء إلى تركيبه والعناصر المكونه له.

أما الطريقة الثانية لقويم النص الأدبى فهى وصفه من الخارج، وكلمة الخارج هنا تشير إلى أمور خارجية ليست فى تركيب النص مثل حياة المؤلف لتفسير حدث معين فى العمل الأدبى، كأن نقول إن هذا الأديب عاش فى طبقة فقيرة، وهو يمقت الطبقة الغنية ونستشهد على ذلك من خلال نصه، أوتفسير بعض الحوادث التاريخية باللجوء إلى نصوص أدبية، أو تفسير لنص باللجوء إلى الحوادث التاريخية أمر شائع فى الأدب العربى، أما تفسير الحقائق التاريخية باللجوء إلى النص الأدبى فهو أمر يلجأ إليه المؤرخون عند غياب الوثائق التاريخية.

ففى كل هذه الأمثلة نقوم بتفسير النص باللجوء إلى معايير خارجية أى عناصر ومعلومات خارجية غير متوفرة لدى القراء، على حين إن وصف الأدب من الداخل هو مجابهة النص الأدبى وحده دون استخدامه كوثيقة تاريخية، أو وثيقة نفسية لتوضيح جوانب من حياة المؤلف، وهناك الكثير من النصوص الأدبية العملاقة الموجودة فى الأدب العربى مهملة، إمّا لأنها لاتعطى وصفا اجتماعيا أو تاريخيا، يمكن للناقد أن يتشبث به، أو لأنها لاتلقى ضوءا على حياة مؤلفها.

والقارئ الذى يتطلع إلى الكتابة عن الأدب بصورة دقيقة ومنتظمة ومنهجية ينبغى أن يبدأ بدراسة الأدب من الداخل، أى بدراسة تركيب النص الأدبى وعناصره قبل أن يبدأ بدراسة نقد الأدب من الخارج كاللجوء إلى النقد النفسى أوالاجتماعى أوالتاريخى.

قدمنا منذ قليل رؤية تحليلية لتذوق النص الأدبى، والان ندعوك لتعيش معنا، ونحن نقدم هذه الدراسة التحليلية لكتاب، كيف تتذوق الأدب العربى[1]، لأحد الاساتذة النيجيرين[2] المتخصصين فى علوم العربية، والمشهود لهم بالعلم والاقتدار، حتى كان بعض الناس يسمون بسيبويه نيجيريا.

وقد ذكر مؤلف الكتاب أن الحاجة، أوالدافع الذى جعله يشرع فى تأليف هذا الكتاب أن ثمة اعتقادا خاطئاً فى دراسة النص الأدبى قد تعلمه عندما كان طالباً، وينحصر هذا الاعتقاد فى أن الهدف الأساسى من دراسة أى نص أدبى هو مجرد معرفة مابه من تشبيهات واستعارات وكنايات، وباختصار كان الهدف من دراسة النص الأدبى هو إظهار المهارة اللغوية، وإظهار السعة المعجمية، والإحاطة الموسوعية.

يرى الباحث أن أمله فى هذا البحث محاولة إثبات أن الأدب من حيث هو ثمرة عليا لتجارب الحياة الإنسانية، ودراسته هى دراسة الحياة أولا وأخيرا، فالأدباء لم ينتجوا أدبهم ليقدموا لنا ميدانا للتحذلق والتعالم وإظهار السعة المعجمية والإحاطة الموسوعية، بل إنتاجهم الأدبى قطع من منهجهم، وهم لم يحيوا حياتهم بعمق ويبلوا تجاربها بعنف، ليقدموا لنا نصوصاً نظهر فى دراستها إتقانا للنحو الصرف واللغة والبلاغة، بل يقدمون لنا فوق هذا كله فرصة لنحيا معهم حياة جديدة، فنثرى بذلك حياتنا المحدودة، ونوسع آفاقها، ونضيف إلى تجاربنا تجارب عشرات آخرين من البشر.

---

(١) صدر الكتاب عن دار العربية للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ.

(٢) كان نائب رئيس قسم اللغة العربية بجامعة بايرو سنة ٨٣-١٩٨٤م، وقد تخرج فى جامعة الأزهر والجامعة الأمريكية بالقاهرة.

مدخل الدراسة:

وقبل أن يشرع على نائبى سويد فى دراسته التى تقوم علـى التطبيـق الفعلـى لوجهـة نظره فى دراسة النص الأدبى، يقدم لهذا التطبيق بعدة مداخل، من خـلال مجموعـة مـن الأسئلة وهذا أمر طيب يحمد له ولعل أهمية هذه الأسئلة التـى تجيـب عـن بعـض معطيـات التذوق الفنى للأدب تكشف عن وعى الباحث بطبيعة الأدب، وماهية الفـن، وحقيقـة الفنـان، وتعكس عمق ثقافته العربية، ومدى إلمامه بقضايا النقد العربى.

ويرى الباحث عند حديثة عن " طبيعـة الأداء الفنـى" أن للفن دافعيـن وهمـا " رغبـة الفنان فى أن ينفس عن عاطفته ورغبته فى أن يضع ذلك التنفيس فى صورة تثـير فـى كـل من يتلقاها نظير عاطفته، والرغبة الثانية هى التى تدفعه إلى أن يشكل إنتاجه فـى الأشـكال الفنية، وتجعله يتحمل فى هذا التشـكيل مـايتحمل مـن الجهد ويعطيـه مايعطيـه مـن العنايـة والتضحية"(١).

وفى حديثه عن مميزات الفنان "يرى الباحث أن الفنـان يتمـيز بمـيزتين "أن إحساسـه أشد إرهافا وانفعاله أقوى وأعمق من غير الفنانين، وأن عنده القدرة على نقـل عاطفتـه فـى نوع من الأداء يثيرفنيا نظيرها"(٢).

---

(١) ص١١

(٢) ص١٢.

وفى مجال حديثه عن "كيفية تذوق الأدب" ينعى على المقاييس النقدية القديمة عجزها على أن تشحذ الحقائق العلمية التىتحيط بإنتاج الأدب، سواء منها مايتعلق بالأديب ككائن حى، ينتمى للجنس البشرى ومايتعلق بالبيئة الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بالأدب[1] وانتاجه".

والان نقدم لك نصا تطبيقياً قام الباحث بدراسته، وطبق فيه منهجه، وتجلت من خلاله رؤيته فى تذوق النص، والنص الذى اخترناه لك من بحثه هذا هو الفصل الخامس من البحث:

---

(١) ص٢٢.

طَارَ قَـوْمٌ بِخِفَّـةِ الْوَزْنِ حَتَّـى   لَحِقُـوا خِفَّـةً بِقَـابِ الْعُقَـابِ
وَرَسَـا الرَّاجِحُـونَ مِـنْ جِلَّـةِ النَّـا   سِ رُسُـوَّ الْجِبَـالِ ذَاتِ الْهِضَـابِ
وَلَمَّـا ذَاكَ لِلِّئَـامِ بِفَخْـرٍ   لَا ، وَلَا ذَاكَ لِلْكِـرَامِ بِعَـابِ
هٰكَذَا الصَّخْـرُ رَاجِـحُ الْوَزْنِ رَاسٍ   وَكَـذَا الذَّرُّ شَـائِلُ الْوَزْنِ هَـابِ
فَلْيَطِرْ مَعْشَـرٌ وَيَعْلُـو ، فَـإِنِّـي   لَا أَرَاهُـمْ إِلَّا بِـأَسْفَـلَ قَـابِ
جِيَفٌ أَنْتَنَتْ فَأَضْحَـتْ عَلَـى اللُّجَّـ   ـةِ وَالدُّرُّ تَحْتَهَـا فِـي حِجَـابِ
وَغُثَـاءٌ عَلَا عَبَـابًـا مِـنَ الْيَـمِّ   وَغَـاصَ الْمَـرْجَـانُ تَحْـتَ الْعُبَـابِ
وَرِجَـالٌ تَغَلَّبُـوا بِـزَمَـانٍ   أَنَـا فِيـهِ وَفِيهِـمْ ذُو اغْتِـرَابِ

لِـي صَـدِيـقٌ إِذَا رَأَى لِـيَ طَعَـامًا   لَمْ يَكَـدْ أَنْ يَجُـودَ لِـي بِـالشَّـرَابِ
فَـإِذَا مَـا رَآهُمَـا لِـي جَمِيعًـا   كَفَّبَانِـي لَـدَيْـهِ لُبْسَ الثِّيَـابِ
فَمَتَـى مَـا رَأَى الثَّلَاثَـةَ عِنْـدِي   فَهِـيَ حَسْبِي لَـدَيْـهِ مِـنْ آرَابِـي
لَا يَـرَانِـي أَهْلًا لِمِلْـكِ الظِّهَـارِيِّ   وَلَا مَـوْضِـعَ الْعَطَـايَـا الرِّغَـابِ
وَكَـأَنِّـي فِـي ظَنِّـهِ لَيْسَ شَـأْنِـي   لَهْـوَ ذِي نُهْيَـةٍ وَلَا مُتَصَـابِ
فِـيَّ طَبْـعٌ مَلَائِكِـيٌّ ، لَـدَيْـهِ   عَـارِفٌ صَـادِفٌ عَـنِ الْإِطْـرَابِ
أَوْ حِمَـارِيَّـةٌ ، فَمِقْـدَارُ حَظِّـي   شَبْعَـةٌ عِنْـدَهُ بِلَا إِتْعَـابِ

إنّمَا حَظِّي اللّقَاءُ لَدَيْهِ — مَعَ مَا فِيهِ بِي مِنَ الإِعْجَابِ
لَيْسَ يَنْفَكُّ شَاهِدًا لِي بِفَهْمٍ — وَبَيَانٍ وَحِكْمَةٍ وَصَوَابِ
وَمَتَى كَانَ فَتْحُ بَابٍ مِنَ اللّـ — ـهِ تَوَقَّعْتُ مِنْهُ إغْلاَقَ بَابِ
كَاتِبٌ حَاسِبٌ فَقَدْ عَامَلَ الْخِلْـ — ـةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بِالْحِسَابِ
لَيْسَ يَنْفَكُّ مِنْ قِصَاصِي إذَا أَحْـ — ـسَنَ دَهْرٌ إلَيَّ أَوْ مِنْ عِقَابِي
كُلّمَا أَحْسَنَ الزَّمَانُ أَبَى الإِحْسَـ — ـانَ، يَا لَلْعُجَابِ كُلَّ الْعُجَابِ

أَمِنَ الْعَدْلِ أَنْ تَعُدَّ كَثِيرًا — لِي مَا تَسْتَقِلُّ لِلأَوْقَابِ
أَتْرَانِي دُونَ الأَدَانِي بَلَغُوا الآ — مَالَ مِنْ شُرْطَةٍ وَمِنْ كُتَّابِ
وَتُجَّارٍ مِثْلَ الْبَهَائِمِ فَازُوا — بِالْمُنَى فِي النُّفُوسِ وَالأَحْبَابِ
فِيهِمُ لَكْنَةُ النَّبِيطِ وَلَكِنْ — تَحْتَهَا جَاهِلِيَّةُ الأَعْرَابِ
أَصْبَحُوا يَلْعَبُونَ فِي ظِلِّ دَهْرٍ — ظَاهِرِ السُّخْفِ مِثْلَهُمْ لَعَّابِ
غَيْرَ مُغْنِينَ بِالسُّيُوفِ وَلاَ الأَقْـ — ـلاَمِ فِي مَوْطِنٍ غَنَاءَ ذُبَابِ
خَيْرُ مَا فِيهِمْ، وَلاَ خَيْرَ فِيهِمْ — إنَّهُمْ غَيْرُ آثِمِي الْمُغْتَابِ
وَيَظَلُّونَ فِي الْمَنَاعِمِ وَاللَّـ — ـذَّاتِ بَيْنَ الْكَوَاعِبِ الأَتْرَابِ
لَهُمُ الْمُسْمِعَاتُ مَا يَطْرَبُ السَّا — مِعَ، وَالطَّائِفَاتُ بِالأَكْوَابِ
نِعَمٌ أَلْبَسَتْهُمُ نِعَمُ اللّـ — ـهِ ظِلاَلَ الْغُصُونِ مِنْهَا الرِّطَابِ
حِينَ لاَ يَشْكُرُونَهَا وَهِيَ تَنْمِي — لاَ، وَلاَ يَكْفُرُونَهَا بِارْتِقَابِ
إنَّ تِلْكَ الْغُصُونَ عِنْدِي لَتَضْحَى — ظَالِمَاتٍ فَهَلْ لَهَا مِنْ مَتَابِ
مَا أُبَالِي أَأَثْمَرَتْ لاِجْتِنَاءٍ — بَعْدَ هٰذَا أَمْ أَيْبَسَتْ لاِحْتِطَابِ
كَمْ لَدَيْهِمْ لِلَّهْوِهِمْ مِنْ كِعَابٍ — وَعَجُوزٍ شَبِيهَةٍ بِالْكِعَابِ
خَنْدَرِيسٍ إذَا تَرَاخَتْ مَدَاهَا — لَبِسَتْ جِدَّةً عَلَى الأَحْقَابِ
بِنْتِ كَرْمٍ تُدِيرُهَا ذَاتُ كَرْمٍ — مُوقَدُ النَّحْرِ مُثْمِرُ الأَنْسَابِ
حِصْرِمٌ مِنْ زَبَرْجَدٍ بَيْنَ نَبْعٍ — مِنْ يَوَاقِيتَ جَمْرُهَا غَيْرُ خَابِ
فَوْقَ لَبَّاتِ غَادَةٍ تَتْرُكُ الْخَا — لِي مِنْ كُلِّ صَبْوَةٍ وَهُوَ صَابِ

تَحْمِلُ الْكَأْسَ وَالْحُلِيَّ، فَتَبْدُو   فِتْنَةَ النَّاظِرِينَ وَالشُّرَّابِ
يَا لَهَا سَاقِيًا تُدِيرُ يَدَاهُ   مُسْتَطَابًا يُنَالُ مِنْ مُسْتَطَابِ
لَذَّةُ الطَّعْمِ فِي يَدَيْ لَذَّةِ الْمَلْـ   ـثَمِ تَدْعُو الْهَوَى دُعَاءَ مُجَابِ
فَفَمٌ شَارِبٌ رَحِيقًا، وَطَرْفٌ   شَارِبٌ مَاءَ لَبَّةٍ وَسِخَابِ
وَمِزَاجُ الشَّرَابِ -إنْ حَاوَلُوا الْمَزْ   جَ- رُضَابٌ، يَا طِيبَ ذَاكَ الرُّضَابِ
مِنْ جَوَارٍ كَأَنَّهُنَّ جَوَارٌ   يَتَسَلْسَلْنَ مِنْ مِيَاهٍ عِذَابِ
لَابِسَاتٍ مِنَ الشُّفُوفِ لَبُوسًا   كَالْهَوَاءِ الرَّقِيقِ أَوْ كَالشَّرَابِ
وَمِنَ الْجَوْهَرِ الْمُضِيءِ سَنَاهُ   شُعَلًا يَلْتَهِبْنَ أَيَّ الْتِهَابِ!
فَتَرَى الْمَاءَ ثَمَّ وَالنَّارَ وَالْآ   لَ بِتِلْكَ الْأَبْشَارِ وَالْأَسْلَابِ
يُوحِشُ اللَّيْلِ رِكْزُهُنَّ فَيَنْجَا   بُ وَإِنْ كَانَ حَالِكَ الْجِلْبَابِ

لَنْ تَرَى الْقَوْمَ بَيْنَهُنَّ، لَأَجْبِرْ   تَ صِرَاحًا، وَلَمْ تَقُلْ بِاكْتِسَابِ
مِنْ أُنَاسٍ لَا يُرْتَضَوْنَ عَبِيدًا   وَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْأَرْبَابِ
حَالُهُمْ حَالُ مَنْ لَهُ دَارَتِ الْأَ   فْلَاكُ وَاسْتَوْثَقَتْ عَلَى الْأَقْطَابِ
وَكَذَاكَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةُ قَدْرًا   تَتَصَدَّى لِأَلْأَمِ الْخُطَّابِ
مُكِّنُوا مِنْ رِحَالِ مِيسٍ وَطِيئَا   تٍ وَأَضْحَى بِنَا عَلَى الْأَقْتَابِ
كَابْنِ عَمَّارٍ الَّذِي تَرَكَتْهُ   حَمَقَاتُ الزَّمَانِ كَالْمُرْتَابِ
مِنْ فَتًى لَوْ رَأَيْتَهُ لَرَأَتْ عَيْنَا   كَ عِلْمًا وَحِكْمَةً فِي ثِيَابِ
بَزَّهُ الدَّهْرُ مَا كَسَا النَّاسَ إِلَّا   مَا عَلَيْهِ مِنْ لَحْمِهِ وَالْإِهَابِ
أَوْ حُلِيِّ ظَرْفِهِ الَّتِي نَحَتَتْهُ   فَلَوِ اسْتَطَاعَ بَاعَهَا بِجِرَابِ
سَوْءَةٌ. سَوْءَةٌ لِصُحْبَةِ دُنْيَا   أَسْخَطَتْ مِثْلَهُ مِنَ الْأَصْحَابِ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى مَنَاكِيرِ لِلنُّكْـ   ـرِ غِضَابٍ ذَوِي سُيُوفٍ عِضَابِ
تَغْسِلُ الْأَرْضَ بِالدِّمَاءِ فَتُضْحَى   ذَاتَ طُهْرٍ تُرَابُهَا كَالْمَلَابِ
مِنْ كِلَابٍ نَأَى بِهَا كُلُّ نَأْيٍ   عَنْ وَفَاءِ الْكِلَابِ غَدْرُ الذِّئَابِ
وَاثِبَاتٍ عَلَى الظِّبَاءِ، ضِعَافٍ   عَنْ وِثَابِ الْأُسُودِ يَوْمَ الْوِثَابِ

شُرَطٌ خُوِّلُوا عَقَائِلَ بِيضًا لَا بِأَحْسَابِهِمْ بَلْ بِالْاكْتِسَابِ
فَإِذَا مَا تَعَجَّبَ النَّاسُ قَالُوا: هَلْ يَصِيدُ الظِّبَاءَ غَيْرُ الْكِلَابِ
أَصْبَحُوا ذَاهِلِينَ عَنْ شَجَنِ النَّا سِ وَإِنْ كَانَ حَبْلُهُمْ ذَا اضْطِرَابِ
فِي أُمُورٍ وَفِي خُمُورٍ وَسُمُّو رٍ وَفِي قَاقُمٍ وَفِي سِنْجَابِ
وَتَهَاوِيلَ غَيْرَ ذَاكَ مِنَ الرَّقْـ ـمِ وَمِنْ سُنْدُسٍ وَمِنْ زِرْبَابِ
فِي حَبِيرٍ مُنَمْنَمٍ وَعَبِيرٍ وَصِحَانٍ فَسِيحَةٍ وَرِحَابِ
فِي مَيَادِينَ يَخْتَرِقْنَ بَسَاتِيـ ـنَ تَمَسُّ الرُّءُوسَ بِالْأَهْدَابِ
لَيْسَ يَنْفَكُّ طَيْرُهَا فِي اصْطِخَابِ تَحْتَ إِظْلَالِ أَيْكِهَا وَاصْطِحَابِ
مِنْ قَرِينَيْنِ أَصْبَحَا فِي غِنَاءٍ وَفَرِيدَيْنِ أَصْبَحَا فِي انْتِحَابِ
بَيْنَ أَفْنَانِهَا فَوَاكِهُ تَشْفِي مَنْ تَدَاوَى بِهَا مِنَ الْأَوْصَابِ
فِي ظِلَالٍ مِنَ الْحَرُورِ وَأَكْنَا نٍ مِنَ الْقَرِّ جَمَّةِ الْحِجَابِ
عِنْدَهُمْ كُلُّ مَا اشْتَهَوْهُ مِنَ الْآ كَالِ وَالْأَشْرِبَاتِ وَالْأَشْوَابِ
وَالطَّرُوقَاتِ وَالْمَوَاكِبِ وَالْوِلْـ ـدَانِ مِثْلَ الشَّوَادِنِ الْأَسْرَابِ
وَالْيَلَنْجُوجُ فِي الْمَجَامِرِ وَالنَّدْ تَرَى نَشْرَهُ كَمِثْلِ الضَّبَابِ
وَالْغَوَالِي وَعَنْبَرِ الْهِنْدِ وَالْمِسْـ ـكِ عَلَى الْهَامِ وَاللِّحَى كَالْخِضَابِ
وَلَدَيْهِمْ وَذَائِلُ الْفِضَّةِ الْبِيـ ـضِ تُبَاهِي سَبَائِكَ الْأَذْهَابِ
لَمْ أَكُنْ دُونَ مَالِكِي هَذِهِ الْأَمْـ ـلَاكِ لَوْ أَنْصَفَ الزَّمَانُ الْمُحَابِي

أَنْتَ طِبٌّ بِذَاكَ لَكِنْ تَغَا بَيْتَ وَحَابَيْتَ كُلَّ كَلْبٍ وَنَابِ
آتِيًا مَا أَتَى الزَّمَانُ مِنَ الظُّلْـ ـمِ وَهَاتِيكَ مِنْكَ سَوْطُ عَذَابِ
قَاتَلَ اللهُ دَهْرَنَا أَوْ رَمَاهُ بِاسْتِوَاءٍ فَقَدْ غَدَا ذَا انْقِلَابِ
يَعْلِفُ النَّاطِقِينَ مِنْ جَوْزِهِ الْأَجْـ ـلَالَ وَالنَّاهِقِينَ مَحْضَ اللُّبَابِ
ثُمَّ تَلْقَى الْحَكِيمَ فِيهِ يُمَالِي كُلَّ وَغْدٍ عَلَى ذَوِي الْآدَابِ
لَا يَعُدُّ الصَّوَابَ أَنْ تَغْمُرَ الثَّرْ وَةُ إِلَّا ذَوِي الْعُقُولِ الْخَرَابِ
غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ كَثِيرًا لِذِي الْجَهْلِ وَإِنْ كَانَ فِي عَدِيدِ التُّرَابِ

وَإِذَا مَا رَأَى لِحَامِلِ عِلْمٍ قُوتَ يَوْمٍ رَآهُ ذَا إِخْصَابِ
فَمَتَى مَا رَأَى لَهُ قُوتَ شَهْرٍ عَدَّهُ الْمُلْكَ فِي اقْتِبَالِ الشَّبَابِ

لَا تُصَمِّمْ عَلَى عِقَابِكَ إِيَّا يَ، إِذَا أَحْسَنَ الزَّمَانُ ثَوَابِي
فَعَسَى يُمْنُ مَا تُنِيلُ هُوَ الْقَا ئِدُ نَحْوِي مَوَاهِبَ الْوَهَّابِ
فَمَتَى مَا قَطَعْتَهُ جَرَّ قَطْعًا لِلْعَطَايَا مِنْ سَائِرِ الْأَصْحَابِ
كَمْ نَوَالٍ مُبَارَكٍ لَكَ قَدْ قَا دَ نَوَالًا إِلَى طُلُوعِ الْجَنَابِ
وَأُمُورٍ تَيَسَّرَتْ، وَأُمُورٍ بِالْمَفَاتِيحِ مِنْكَ وَالْأَسْبَابِ
لَا تُقَابِلْ تَيَمُّنِي بِكَ بِالرَّدِّ وَلَا الظَّنَّ فِيكَ بِالْإِكْذَابِ
وَاجِبِي أَنْ أَرَى جَوَابِي عُتْبًا كَ فَلَا تَجْعَلِ السُّكُوتَ جَوَابِي
إِنَّ فِي أَنْ تَعُقَّنِي بَعْضَ إِغْضَا بِي وَفِي أَنْ تُهِينَنِي إِغْضَابِي

كُنْتَ تَأْتِي الْجَمِيلَ ثُمَّ تَنَكَّرْ تَ، فَعَاتَبْتَ مُجْمِلًا فِي الْعِتَابِ
فَائْتَنِفْ تَوْبَةً، وَرَاجِعْ فِعَالًا تَرْتَضِيهِ الْأَسْلَافُ لِلْأَعْقَابِ

فى رثاء طليطلة

أقام المسلمون بالأندلس ثمانمائة عام تقريباً، ثم تفرقت الكلمة، وتنازعت الأهواء، وملك الطوائف، فما استطاعوا مواجهة الأخطار القادمة من الشمال، وفى النهاية سقط الأندلس، وكلما سقطت مدينة من مدنه رثاها الشعراء، وبكاها الأدباء ومن المدن العظيمة التى رثاها الشعراء، مدينة طليطلة، وبرغم أن القائل مجهول هنا، إلا أن القصيدة جيدة، تصور حال المسلمين بعد أن غلبهم أعداؤهم، فهم إما قتيل، وإما أسير ذليل، وإما مجبر مكره على الخروج من دينه.

وقد نقلنا هذه القصيدة من كتاب[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقرى القرشى(ت١٠٤١هـ) وهو يتضمن كثيرا من نصوص الأدب الأندلسى، شعره ونثره، كما يترجم لشعراء الأندلس، ويذكر بعضا من تاريخ هذا البلد، ومن ثم يبرز المؤلف جزءا من حضارة المسلمين فى تلك الديار.

يقول الشاعر:

لثكلك كيف تبتسم الثغور[2] ... سرورا بعد ما سبيت ثُغور[3]

أما وأبى مصاب هدّ منه ... ثَبير[4] الدين، فاتصل الثبور[5]

لقد قصمت ظهور حين قالوا ... أمير الكافرين له ظهور

---

(١) ٤/٤٨٣. (٢) ما تقدم من الأسنان.

(٣) المدن والمواقع المتقدمة التى يخاف عليها من الأعداء.

(٤) ثبير جبل بمكة. (٥) الهلاك والخسران.

تـرى فــى الدهـر مسـرورا يعيـش | مضـى عنـا لطيَّتِـه[١] السـرور
أليـس بهـا أبـى النفـس شـهم | يديـر علـى الدوائـر إذ تـدور
وهـان علـى عزيـز القـوم ذل | وسـامح فـى الحريـم فتـى غيـور
طليطلـة أبـاح الكفـر منهـا حماهـا | إن ذا نبــأ كبـــير
فليـس مثالهـا إيـوان كسـرى | ولا منهـا الخورنـق[٢] السـدير
ألـم تـك معقـلا للديـن صعبـا | فذلـك كمـا شـاء القديـر
وأخـرج أهلهـا منهـا جميعـا | فصـاروا حيـث شـاء بهـم مصـير
وكـانت دار إيمـان وعلـم | معالمهـا التـى طمسـت تنـير
فعـادت دار كفـر مصطفـاة | قـد اضطربـت بأهليهـا الأمـور
مسـاجدها كنـائس، أى قلـب | علـى هـذا يقـرّ، ولا يطـير
فيـه أسـفاه ، يـا أسـفاه حزنـا | يكـرر مـا تكررت الدهـور
فـان قلنـا العقوبـة أدركتهـم[٣] | وجـاءهم مـن اللـه النكـير
فأنـا مثلهـم وأشـد منهـم | نجـور[٤]، وكيـف يسلم مـن يجـور
أنـأمَنُ أن يحـل بنـا انتقـام | وفينـا الفسـق أجمـع والفجـور

---

(١) لوقته.

(٢) الخوزنق والسدير قصران.

(٣) أهل الأندلس.

(٤) نظلم.

أكل للحرام، ولاضطرار ... إليه فيسهل الأمر العسير

يزول الستر عن قوم إذا ما ... على العصيان أرخيت الستور

يطول عليَّ ليلي، رب خطب ... يطول لهوله الليل القصور

خذوا ثأر الديانة وانصروها ... فقد حامت على القتلى النسور

ولا تهنوا وسلوا كل عَضْب[1] ... تهاب مضاربا منه النحور

وموتوا كلكم فالموتَ أولى ... بكم من أن تجاروا أوتجوروا

أصبرا بعد سبى[2] وامتحان ... يلام عليها القلب الصبور

ألا رجل له رأى أصيل ... به مما نحاذر نستجير

يكر إذا السيوف تناولته ... بنا اذا ولت كرور

ويطعن بالقنا[3] الخطار،[4] حتى ... يقول الرمح ما هذا الخطير

عظيم أن يكون الناس طرا ... بأندلس قتيل أو أسير

تنغصت الحياة، فلا حياة ... وودع جيرة اذ لا مجير

قليل فيه هَمّ مستكن ... ويوم فيه شر مستطور

ونرجو أن يتيح الله نصرا ... عليهم، إنه نعم النصير

---

(١) سيف قاطع.

(٢) أسر النساء والأطفال.

(٣) جمع قناة وهى الرمح.

(٤) الرجل الطعان بالرمح.

أولاً- التعليق العام:

هذه القصيدة التى نقلنا بعض أبياتها ترثى إحدى مدن المسلمين التى سقطت بأيدى الأسبان، فتحولت من دار إيمان وعلم إلى دار كفر تضطرب بأهلها، الذين تحولوا من عز الى ذل، من استقرار ودعة إلى قتل أو أسر، أو الدخول فى النصرانية قسرا وعنوة. وبرغم الحزن المنتشر عبر الأبيات كلها الا أن الشاعر حاول استنهاض الهمم، والبحث عن ذى رأى أصيل يستطيع مجابهة المصائب التى حلت على رءوس المسلمين فى الاندلس بسيف قاطع بتار، يقول الشاعر:

ويطعن بالقنا الخطارُ حتى ∴ يقول الرمح ما هذا الخطير

ومن الجدير الإشارة إليه أن الشاعر يذكر هنا السبب الذى أدى بالمسلمين إلى الهزيمة أمام الأعداء، إنه الظلم ، يقول الشاعر:

يزول الستر عن قوم إذا ما ∴ على العصيان أرخيت الستور

ويبدو أن الشاعر ليس من أهل الأندلس، أو على الأقل ليس من المدينة الأسيرة التى يرثيها، إذ يقول:

فان قلنا العقوبة أدركتهم ∴ وجاءهم من الله النكير

فإنا مثلهم وأشد منهم ∴ نجور، وكيف يسلم من يجور

إذ من الممكن أن يكون أحد شعراء المغرب، وسمع من المسلمين الذين فروا من الأندلس بعض ما لاقوه على يد أعدائهم، أو قل بعض الذين تمكنوا من النجاة بأنفسهم من جحيم الأسبان. ولعل من الأسباب التى جعلت الشاعر مجهولا أنه هاجم الجور والظلم الذى رآه فى بلاده، ومن ثم خاف أن يعلن عن نفسه حتى لايكون عرضة للمساءلة والاضطهاد..

ثانياً- التحليل النحوي:

في القصيدة أسماء مجرورة، منها:

في قول الشاعر:

لقد قصمت ظهور حين قالوا ∴ أمير الكافرين له ظهور

كلمة : (الكافرين) مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم، وسبب الجر إضافتها الى كلمة؟ (أمير) مع ملاحظة أن الذي يُجرّ هو المضاف إليه فقط أما المضاف فيعرب حسب موقعه الإعرابي، فالمضاف هنا هو : (أمير) مبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة، وهلم جرا.......

في القصيدة كثير من الاسماء المجرورة بحرف الجر مثل:

(على الدوائر- في الحريم- للدين- بأهليها- من الله عن قوم) وكلها مجرورة بالكسرة، عدا:(بأهليها) المجرورة بالياء، لأنها ملحقة بجمع المذكر السالم.

ثالثاً- التحليل البلاغي:

في القصيدة كثير من الصورة البلاغية، مثل:

في قول الشاعر:

لتكلك كيف تبتسم الثغور ∴ سرورا بعد ما سبيت ثغور

صور سقوط طليطلة بالثكل، وهو فقد الأبناء، فكأن هذه المدينة حين وقعت في يد الأعداء ثكلت أبناءها ورجالها، مما يدل على الحزن الشديد والألم البالغ لما حدث لأبناء المدينة العظيمة.

وفى نفس البيت أيضا الجناس بين:(الثغور) الأولى، التى تعنى ثغور البشر، وبين: (ثغور) الثانية التى تعنى ثغور البلاد الأساسية المواجهة للعدو.

وفى قول الشاعر:

قصمت ظهور حين قالوا ∴ أمير الكافرين له ظهور

جملة : (قصمت ظهور) كناية عن هول المصائب التى قصمت الظهور وهدتها، وفى البيت ايضاً جناس بين: (ظهور) فى الشطر الأول التى تعنى ظهور الناس، وبين (ظهور) فى الشطر الثانى التى تعنى العلو والانتصار.

يقول الشاعر:

فإنا مثلهم وأشد منهم ∴ نجور، وكيف يسلم من يجور

يشبه حال أهل بلاده أوبلده بحال أهل طليطلة، ووجه الشبه بين الحالين هو الجور والظلم، بل يتنبأ بمصير كمصير القوم إذ يقول:(وكيف يسلم من يجور) أى كيف يسلم من العقوبة من يجور ويظلم.

رابعاً- التحليل الاملائى :

يلاحظ الفرق بين تاء التأنيث المربوطة التى تتحول الى هاء عند الوقف وبين هاء الضمير، اذ الاولى علامة للتأنيث فقط، أما الثانية فاسم له محل من الاعراب، كما يلاحظ الفرق فى الرسم بين تاء التأنيث المربوطة وبين الهاء كما ترى:

هاء الضمير	تاء التانيث
له	طليطلة
منه	مصطفاة
لهوله	الحياة
فيه	جيرة

فالفرق فى الرسم هنا واضح، فتاء التأنيث فى الرسم هـاء عليهـا نقطتـان سـواء عنـد الوصل أو الوقف، أى لو نطقت تاء أو هاء، أما الثانية فلا تنقط على الإطلاق، وهى تنطـق هاء فى الوصل والوقف.

الناسك والضيف

أخذنا هذا النص من كتاب كليلة ودمنة الذى ألفه الفيلسوف الهندى بيدبا- فيما يقال- ونقله إلى العربية عبد الله بن المقفع، وهو عبارة عن حكايات على لسان الطير والحيوان تهدف كل واحدة منها إلى حكمة مفيدة، يتعلمها العاقل، ويتسلى بالحكاية الغافل، وقد بدأ الكتاب بباب الأسد والثور، وفيه من الشخصيات حيوانان، يسمى الأول كليلة والثانى دمنة ومن ثم كان اسم الكتاب: (كليلة ودمنة).

والكتاب من عيون الأدب المترجم إلى العربية فى عصورها الزاهرة، فضلا عن أسلوبه الجزل، وحكاياته الجذابة الممتعة، والقارئ للكتاب يجد فيه ايضاً فوائد جليلة وحكما بليغة، إضافة إلى التسلية والمتعة، مما حدا بالأدباء والعلماء إلى ترجمته إلى كثير من لغات العالم الحية المشهورة، الأمر الذى جعله نموذجاً للقصص على لسان الطير والحيوان يحتذى به كثير من أدباء العالم وكتابه، وهاك النص:

باب الناسك والضيف

قال دَبْشَليم الملك لبَيْدَبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل الذى يدع صنعه الذى يليق به ويشاكله[١]، ويطلب غيره فلا يدركه، فيبقى حيران مترددا، قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض الكَرْخ [٢] ناسك عابد مجتهد، فنزل به ضيف ذات يوم، فدعا الناسك لضيفه بتمر ليطْرِفه[٣]، فأكلا منه جميعا، ثم قال الضيف:

---

(١) يناسبه.

(٢) فى لسان العرب: الكرخ سوق ببغداد وهى نبطية..

(٣) ليقدم له شيئا طريفا، لاعهد له به.

ما أحلى هذا التمر وأطيبه، فليس هو في بلادى التى أسكنها، وليته كان فيها، ثم قال: أرى أن تساعدنى أن آخذ منه ما أغرسه فى أرضنا، فإنى لست عارفا بثمار أرضكم هذه، ولا بمواضعها.

قال له الناسك : ليس لك فى ذلك راحة، فإن ذلك يثقل عليك، ولعل ذلك لا يوافق أرضكم، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار، فما حاجتها -مع كثرة ثمارها- الى التمر مع وخامته[1] وقلة موافقته للجسم؟ ثم قال له الناسك: إنه لا يعد حكيماً من طلب ما لايجد، وإنك لسعيد الجد[2] إذا قنعت بالذى تجد، وزهدت فيما لاتجد.

وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرية، فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه، وعالج فى نفسه أياما، فقال الناسك لضيفه: ما أخلقك أن تقع فيما تركت من كلامك وتكلفت من كلام العبرانية، فى مثل ما وقع فيه غراب .... قال الضيف: وكيف كان ذلك؟ قال الناسك:

زعموا أن غرابا رأى حَجَلة[3] فأعجبته مشيتها وطمع أن يتعلمها، فراض[4] على ذلك نفسه، فلم يقدر على إحكامها، وأيس[5] منها، وأراد أن يعود إلى مشيته التى كان عليها، فإذا هو قد اختلط وتخلج فى مشيته، وصار أقبح الطير مشيا، وإنما ضربت لك هذا

---

(١) ثقله.

(٢) الحظ.

(٣) طائر.

(٤) مرن نفسه.

(٥) يئس.

المثل لما رأيت أنك تركت لسانك[1] الذى طبعت عليه، وأقبلت على لسان العبرانية[2]، وهو لا يشاكلك، وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لسانا، فإنه قد قيل: إنه يعد جاهلا من تكلف من الأمور ما لايشاكله، وليس من عمله، ولم يؤدبه[3] عليه آباؤه وأجداده من قبل.

(١) لغتك.

(٢) اللغة العبرية.

(٣) يعوده وينشئه.

فى مدخل الحمراء للشاعرر نزار قبانى

ذهب الشاعر نزار قبانى إلى مدينة غرناطة، وفى مدخل قصر الحمراء التقى بفتاة أسبانية ذكرته بالعرب وأمجادهم فى تلك البلاد، هذا ماتحكيه تلك القصيدة التى وردت فى ديوان [1] الشاعر تحت اسم (غرناطة):

فــــى مدخـــــل الحمـــــراء كـــــان لقاؤنـــــا
مـــــا أطيـــــب اللقيـــــا بـــــلا ميعـــــاد
عينـــــان ســـــوداوان فـــــى حجريهمـــــا
تتوالـــــد الأبعـــــاد مـــــن أبعـــــاد
هـــــل أنـــــت أســـــبانية؟ ســـــاءلتها
قـــــالت: وفـــــى غرناطـــــة ميـــــلادى
غرناطـــــة ؟ وصحـــــت قـــــرون ســـــبعة
فـــــى تينـــــك[2] العينيـــــن ...... بعـــــد رقـــــاد[3]
وأمتـــــى راياتهـــــا مرفوعـــــة ......
وجيادهـــــا موصولـــــة بجهـــــاد
مـــــاأغرب التـــــاريخ ... كيـــــف أعـــــادنى
لحفيـــــدة ســـــمراء ..... مـــــن أحفـــــادى

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ١/٥٦٦ - ٥٦٨، منشورات نزار قبانى - بيروت، الطبعة الثانية عشرة، سنة ١٩٨٣م.

(٢) فى هاتين.

(٣) نـــوم.

وجــــه دمشــــقى ... رأيـــت خلالــــه
أجفـــــان بلقيـــس وجيـــد ســـعاد
ورأيــــت منزلنـــا القديـــم وحجـــرة
كــــانت بهــــا أمــــى تمـــد وســـادى
والياســـمينة، رصعـــت بنجومهــــا
والبركـــــة الذهبيـــــة(١) الإنشـــــاد
ودمشـــق أيـــن تكـــون؟ قلـــت: ترينهـــا
فـــى شـــعرك المنســـاب نهـــر ســـواد
فـــى وجهـــك العربـــى فـــى الثغـــر(٢) الـــذى
مـــازال مختزنـــا شـــموس بـــلادى
فـــى طيـــب (جنـــات العريـــف)(٣) ومائهـــا
فـــى الفـــل فـــى الريحـــان، فـــى الكبـــاد(٤)
ســـارت معـــى، والشـــعر يلهـــث خلفهـــا
كســـنابل تركـــت بغـــير حصـــاد .....
يتـــألق القـــرط(٥) الطويـــل بجيدهــــا(٦)
مثـــل الشـــموس بليلـــة الميـــلاد
ومشـــيت مثـــل الطفـــل خلـــف دليلتـــى
وورائـــى التـــاريخ ... كـــوم رمـــاد ....
والزركشـــات علـــى الســـقوف تنـــادى

---

(١) بركة الماء التى تبعث على إنشاد الشعر الجميل. (٢) الفم.
(٣) مكان بالأندلس اشتهر بكثرة حدائقه. (٤) نوع من الأزهار اشتهرت به الأندلس.
(٥) الحلَق. (٦) العنق.

قـــالت: هنـــا الحمـــراء ... زهـــو جدودنـــا

فـــاقرأ علـــى جدرانهـــا أمجـــادى

أمجادنـــا ومســـحت جرحـــا نازفـــا

ومســـحت جرحـــا ثانيـــا بفـــؤادى

بـــاليت وارثتـــى الجميلـــة أدركـــت

أن الذيـــن عنتهـــم أجـــدادى

عـــانقت فيهـــا عندمـــا ودعتهـــا

رجـــلا يســـمى (طـــارق بـــن زيـــاد)

من شهداء إفريقية

للشاعر محمد الفيتورى

من شهداء إفريقية

للشاعر محمد الفيتورى

خاضت إفريقية نضالا مريرا ضد الاستعمار سالت خلاله الدماء الزكية الطاهرة غزيرة على أرض قارتنا المناضلة المجاهدة، عشرات من القادة الأبطال الشجعان، ومئات الألوف من أبناء القارة البررة قدموا المهج والأرواح فداء لاستقلال بلادهم، وصونا لكرامة أرضهم ومن هؤلاء القادة السلطان تاج الدين الذى قاد قبائل المساليت في غرب السودان ضد القواتِ الفرنسية الغازية، وقد نال الرجل وسام الشهادة، فصعدت روحه الى باريها فى سنة ١٩١٠م.

والشاعر السودانى محمد الفيتورى معروف بدفاعه المتحمس عن قضايا القارة المظلومة، فقد لفت ديوانه الاول: "أغانى إفريقية" الذى صدر فى عام ١٩٥٥م اهتمام النقاد والدارسين، ثم ترجمت بعض أعماله الى اللغات الإنجليزية، والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية وبعض لغات يوغسلافية.

وقد نشرت هذه القصيدة فى ديوان:(اذكرينى يا إفريقية)(١) تحت عنوان:(مقتل السلطان تاج الدين) ولكنا عدلنا عنه إلى:(من شهداء إفريقية) فإن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فالقرآن الكريم يقول:(ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون)(٢) .

وللإشارة إلى أن تاج الذى كان واحدا فقط من قافلة الشهداء الذين أهدوا إلى أمتهم الروح، والدم والنفس حتى تبقى الكرامة مصونة والرأس مرفوعة.

---

(١) نشرته دار القلم المصرية سنه ١٩٦٦م.

(٢) ١٦٩/آل عمران.

يقول الشاعر:

فوق الأفق الغربى سحاب أحمر لم يمطر

والشمس هناك مسجونة

تتنزى[1] شوقا منذ سنين

والريح تدور كطاحونة

حول خيامك يا تاج الدين

يافارس

يافارس

سرج جوادك ليس يلامس ظهر الأرض

وحسامك[2] مثل البيرق[3] يخترق الظلمات

يافارس:

مثل الصقر إذا ما انقض

بيتك عالى الشرفات

نارك لا تخبو ... لا تَسْوَدّ

وجارك موفور العرض

---

(١) تتوثب.

(٢) سيفك.

(٣) العلم.

يا فارس

حتى مات

كان السلطان يقود طلائعنا نحو الكفار

وكان هناك بحر الدين[1]

وأشار إلينا تاج الدين

وأطل بعينيه كالحالم

في قلب السهل الممتد

ثم تتهد:

الحرب الملعونة

أكلت حتى الشوك المسوَدّ

لم تبق جدارا لم ينهد

ومضى السلطان يقول لنا

ولبحر الدين:

هذا زمن الشدة يا إخواني

هذا زمن الأحزان

سيموت كثير منا

حزنا لم تشهده من قبل ولا من بعد

(١) بيده أنه كان أحد أعوان القائد تاج الدين.

وارتــــاح بكلتــا كفيــــه فــــوق الحربـــة

ورنـــــا[1] فــــــى اســـــتغراق

نحـــــــو وجـــــــوه الفرســــــان

كـــــان الجـــــو ثقيـــــــلا

كـــان الجـــو ثقيـــلا مسبـــقوفا بالرهبـــة

وبحـــار مـــن عــرق تجــرى فــوق الأذقـــان

وســـيوفهم المســـلولة تأكلهــــا الرغبـــة

والخيـــل ســـنابكها تتوقـــد كـــالنيران

ومضــــى الســـلطان يقـــول لنـــا

ولبحر الدين:

هـــذا زمـــن الشـــدة يـــا إخوانـــى

فســـيوف الفرســـان المقبوضـــة بـــالأيدى

تغـــدو حطبـــا مـــالم نقبضهـــا بالإيمـــان

والســـيف القـــاطع فـــى كـــف الفـــارس

كالفـــــارس يحلـــم بلقـــاء الفرســـان

وترجل تاج الدين

جبـــل يـــترجل مزهـــوا مـــن فـــوق جبـــل

وترجـــــل بحـــــر الديـــــن

وحواليــــه عشـــــرة آلاف رجــــل

---

(١) نظر إلى أعلى.

سـجدوا فــوق رمــال (درونــى)[1] اللـــه معــه
وأطلـــت كـــل عيـــون الطـــير المندفعــــة
فــى هجرتنـــا مـــن الغـــرب لتـــاج الديـــن
فعلــــى أفـــق الــــوادى الغــــائم
تمتـــــــد رعوس وعمـــــــــائم
ويبـــــارق يشـــــبهن حمــــــائم
ثـــــم ارتجفـــــت أمـــــواج الطـــــير
وراء الســـــــحب المرتفعــــــــة

يا تاج الدين
الأعـــــداء أمـــــامك .... ارجــــــع
لهــــب .... وقذائـــــف حمـــــر .....
وخـــــــــوذات تلمـــــــــع
والحربـــــة مهمــــا طـــــالت
لـــــن تهــــزم مدفــــــع
لـــن تهـــزمــهــم يـــا تـــاج الديـــن
بســــلاح كزمـــــانك مســـــكين
وكعاصفــــة ســـوداء تلفـــت تـــاج الديـــن

(١) يبدو أنها إحدى مدن غرب السودان التى ثـأرت فوقها المعركة التى استشهد فيها السلطان تـاج الدين.

وفـــى ســـخط الجبـــارين تلفـــت تـــاج الديـــن

وأطـــــل علـــــى وجـــــه القـــــاتل

كـــــانت شـــــفتاه رعـــــوداً وزلازل

كـــــانت كلمـــــات الســـــلطان

سلاســـــــــــــــــــل

يا ويلك ..... لو لم تكن ضيفى يا عبد الله[1]

مـــا أقبـــح مـــا حركـــت بـــه شـــفتيك

مـــا أبشـــع مـــا منيـــت بـــه عينيـــك

عـــــار مـــــا قلـــــت

وعـــــار أن نســـــتمع إليـــــك

فـــــاثن زمـــــام جـــــوادك

وخـــــذ الـــــدرب الآخـــــر

يـــا بحـــر الديـــن أعـــده للـــدرب الآخـــر

وتدفقـــــــت الرايـــــــات

وغطـــى الأفـــق صهيـــل[2] الخيـــل

و (دروتـــى) العطشـــى مـــا زالـــت

تحلـــم بمجـــــىء الســـيل

---

(١) ضيفه الذى يدعوه إلى الانسحاب.

(٢) صوت الخيل.

وتحدر من خلف الوديان المحجوبة

علم قان[1] ومدافع سبع منصوبة

وحرائق وضجيج شياطين

ها هم قدموا يا تاج الدين

فانشر دقات طبولك ملء الغاب[2]

حاربهم بالظفر و بالناب

طوبى للفارس

إن الحرب اليوم شرف

طوبى للفارس

إن الموت اليوم شرف

داسوا عزة أرضك

هتكوا حرمة عرضك

عاثوا ملء بلادك غازين

غرباء الأوجه سفاكين

فاضرب ... اضرب .. يا تاج الدين

اضرب ... اضرب ... اضرب

---

(1) شديد الحمرة.

(2) الغابة.

يا مولاى السلطان.

سلام الله عليك.

قتلى أعداؤك مطروحون لدى قدميك

أسرى مغلوبون، وخدام بين يديك

أكلت نيران مدافعهم نيرانك أنت

بالسيف والحربة

وبإيمانك قاتلت

يا فارس، تسحق أعداءك

تحت الراية غرقت رأس القائد فى الدم

أرخى عينيه فى رعب

ثم استسلم

سلمت كفك يا تاج الدين

فاقض على أحلام الباقين

صاروا بعد القائد

قطعان غنم

طاردهم بجنودك

عبر الفلوات[1]

عبر (دروتى) عبر الأكمات

قتلاك من الأعداء مئات

والأسرى قد ملأوا الساحات

والقائد ملقى فى الطرقات

سلمت كفك يا تاج الدين

(١) الصحراوات.

لكـــــــن الشــــــمس المســــــجونة

والريـــــــح الحبلـــــــى الملعونـــــــة

مـــــا زالـــــت مثـــــل الطاحونـــــة

تجـــــرى .. تجـــــرى حـــــول خيـــامك

تجـــــرى مـــــن خلفـــــك وأمـــــامك

- يا تاج الدين

- يا تاج الدين

مـــــازال عداتـــــك مختبئيـــــن

أيديهـــم راعشـــة .. ورصـــاص بنـــادقهم

يـــتزاحم فـــى بـــطء نحـــو جبينـــك

يـــــا فـــــارس خـــــذ حـــــذرك

مـــــن طعنـــــات طعينـــــك

يـــــا فـــــارس خـــــذ حـــــذرك

يـــــا فـــــارس خـــــذ حـــــذرك

ليتـــــك لا تتحـــــــــرك

فبنـــادقهم لا زالـــت راكضـــة إثـــرك[1]

أتـــــرى تثقـــــب رأســـــك

أتـــــرى تثقـــــب صـــــدرك

يـــــا فـــــارس خـــــذ حـــــذرك

---

(١) نحوك

ليتك لا تتحرك
كانت عيناه حينئذ
تقفان على جرحاه
والراية في عينيه
قد لطخها الدم
وأتت ريح خريف
وتراكض(1) خلف خطاه
وتجهم(2) وجه (دروتي) بالسحب وأظلم
وأتت بضع رصاصات
خجلات مضطربات
أقبلن من الظلمات
فرأينا تاج الدين
يبدو وكأن قد مات
يا تاج الدين سلمت
مزق أستار الصمت
عد من وديان الموت
أو تذهب حتى أنت؟
وتساقط تاج الدين
لم يقو الفارس أن يرجع
لبكاء الشعب عليه
فرصاصات خمس صدئات
تسكن في عينيه
لكن أحداً لم ير رايته
تسقط من كفيه

---

(1) تتسابق في الجرى. (2) جهم أي كالح الوجه.

منظر الشروق والغروب لأمير الشعراء أحمد شوقي[1]

حبا الله الكون جمالا ساحرا وهندسة دقيقة ونظاما محكما وقد أثار هذا الجمال أحاسيس الشعراء ووجدانهم فاستلهموا الكون، وطفقوا يصفون ما أسر قلوبهم، ولفت انتباههم من مشاهده الفاتنة، وصوره الجذابة، ومظاهره الرائعة التي تدل على عظمة الخالق وجلاله وجماله، ومن هؤلاء الذين أبدعوا الوصف وحلقوا في سمائه أمير الشعراء فقد استرعى فؤاده ووجدانه جمال الكون لحظة الشروق وساعة الغروب فقال:

١- لمن غُرة تنجلي من بعيد	بمرأى كما الحُلْم ضاح سعيد؟
٢- تهز الوجود تباشيرها	كما هز من والديه الوليد
٣- ويغشى الدنا من جلاها سنا	أضاء لنا كل حال نضيد[2]

(١) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي يلقب بأمير الشعراء، أشهر شعراء العصر الأخير ولد سنه ١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م بباب إسماعيل، وشب في جواره ونشأ في حماه، تعلم في بعض المدارس الحكومية، وقضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧م إلى فرنسا، فتابع دراسة الحقوق في مونبيليه، واطلع على الأدب الفرنسي وعاد ١٨٩١م فعين رئيسا للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي، وندب لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف ١٨٩٦م، سافر إلى إسبانيا ١٩١٥م وعاد في أواخر ١٩١٩م فجعل من أعضاء مجلس الشيوخ، وعالج أكثر فنون الشعر مديحا وغزلا ورثاء ووصفا، ومن آثار الشوقيات التي اخترنا منه هذه القصيدة، وكليوباترا، قصة شعرية، ومجنون ليلى، وعلي بك الكبير، توفي ١٩٣٢م.

(٢) السنا الضوء، نضيد متسق.

٤- من الموج ملتمعٍ مثلما … تحلت نحور الدمى بالعقود

٥- أتتنا من الماء مهتزة … منيرةٌ تعتلي للوجود

٦- وتصعد من غير ما سلم … فيا للمصور هذا الصعود

٧- وهذا المنير القريب القريب … وهذا المنير، البعيد البعيد

٨- وهذا المنير الذى لن يرى … وهذا المنير، وكلٌ شهيد

٩- وهذا الجسام الخفيف الخطا … وهذا الجسام الذى ما يميد

١٠- ويا للمصور آثارها … بكل بحار وفى كل بيد

١١- وتقليلها كل جمٍّ السنا … وتصغيرها كل عال مشيد

١٢- من النار لكن أطرافها … تدور بياقوتة لن تَبيد

١٣- من النار لكن أنوارها … إلهية زينت للعبيد

١٤- هى الشمس كانت كما شاءها … ممات القديم، حياة الجديد

١٥- ترد المياه إلى حدها … وتبلى جبال الصفا والحديد

١٦- وتطلع بالعيش أو بالردى … على الزرع: قائمه والحصيد

١٧- وتسعى لذا الناس مهما سعت … بخير الوعود وشر الوعيد

١٨- وقد تتجلى إذا أقبلت … بنعمى الشقى وبؤسى السعيد

١٩- وقد تتولى إذا أدبرت … وليست بمأمونة أن تعود

٢٠- فما للغروب يهيج الأسى … وكان الشروق لنا أى عيد؟

٢١- كذا المرء ساعة مِيلاده … وساعة يدعو الحمام العنيد

٢٢- وليس بجار ولا واقع … سوى الحق مما قضاه المريد

همزة الوصل :

تكتب همزة الوصل هكذا (ا) بدون رأس العين هذه (ء) لا فوقها ولا تحتها، ومن الخطأ كتابة همزة الوصل بهذه الطريقة (أ) أو (إ) وإن كان الكثير من المتعلمين يقع فى هذا الخطأ المشار إليه.

وهمزة الوصل لا تكون إلا فى بداية الكلمة، مثل (اسم - امتحان - اتحاد - استمر) إلا أن تسبق بحرف عطف، مثل (فاصبر على ما يقولون).

أما همزة القطع فقد تكون فى بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها، مثل (أكل - سأل - قرأ) دون اقتصار على بداية الكلمة، كما هو الحال فى همزة الوصل.

ومن الضرورى استخدام رأس العين (ء) فى كتابة همزة القطع وإن كان هذا الرمز يكتب على ألف أو واو أو ياء أو على السطر أحيانا مثل (رأس - يؤرخ - قائل - دفء) وقبل أن نتحدث عن تفصيلات كتابة همزة القطع يحسن أن نذكر مواضع همزة الوصل مذكرين أنها تكتب بدون رأس العين (ء) هكذا فقط (ا).

وتقع همزة الوصل فى المواضع الاتية :

١- الأسماء : ابن - ابنه - امرؤ - امرأة - اسم - اثنان - اثنتان - ابنم - ايمن - ايم .

٢- الأفعال والمصادر : الماضى والأمر والمصدر من الخماسى والسداسى والأمر من الثلاثى مثل (انكسر - استكثر - استكثار - اسمع).

٣- الحرف : توجد همزة الوصل في أداة التعريف (الـ) مثل (الهمزة - الوصل - الكتاب).

وإذا بدأت الكلمة بهمزة قطع مثل (إن - إقرار) فإن كتابتها بدون رأس العين (ء) أقل خطورة من كتابة هذا الرمز فى همزة الوصل فهذا خطأ فى غاية القبح والبشاعة، مثاله : (إتحاد - إمتحان - إسم - إبن - إسمع) والصحيح أن نكتب بهذه الطريقة : (اتحاد - امتحان - اسم - ابن - اسمع) أما لو تركت عزيزى القارئ رأس العين فى همزة القطع مثل (لان - قرأ - الهم) فهو خطأ أيضاً، وقد يوقع فى اللبس والوهم، إذ الواجب كتابة تلك الكلمات هكذا (لأن - قرأ - ألهم) وبرغم هذا فهو خطأ أقل بشاعة من زيادة (ء) فى همزة الوصل.

ومن الجدير ذكره عزيزى القارئ - أن همزة الوصل قد تحذف فى كلمة (ابن) إذا وقعت بين علمين، مثل : (محمد[1] بن عبد الله - سعيد بن جبير، عمر بن الخطاب) فإن لم تقع بين علمين، مثل كتاب ابن الجزرى بقيت همزة الوصل كما ترى، فإذا كانت كلمة : (ابن) بين علمين ولكن الثانى ليس أبا أو جدا بأن كان أما مثل (عيس ابن مريم) بقى رمز همزة الوصل، كما ترى، كما يبقى ايضا فى مثل (السادات ابن مصر البار) حيث البنوة هنا مجازية، لا حقيقية.

يبقى أن نشير الى مسألة مهمة غاية الأهمية وهى أن همزة الوصل بين علمين تبقى أيضا إذا جاءت كلمة (ابن) أول السطر، فإذا قلت مثلا : (محمد ابن عبد الله) ثبت الرمز كما ترى.

---

(١) كما يراعى أن العلم الموصوف بابن لا ينون، فلا نقول : (محمدٌ بن عبد الله) بل : (محمدُ بن عبد الله). وهكذا.

همزة القطع :

يراعى أن همزة الوصل لاتكون إلا أول الكلمة، أما همزة القطـع فتـأتى أول الكلمة وآخرها ووسطها، نتحدث عن كلٍ فيما يلى:

١- أول الكلمة: فى أول الكلمة تكتب همزة القطع ألفا فـى جميـع الأحـوال، مع وضع الهمـزة (ء) تحـت الألـف إذا كـانت مكسـورة، مثـل: (إنهـاء-إجراء-إربد).

وتوضع فوق الألف إذا كانت مفتوحة مثل:(أنـت-أنتـم-أنهـار-أعـز) أو مضمومة، مثل (أرز-أمة-أمهات-أرجوحة-أنشودة) وهكذا، مـع ملاحظـة أن همزة الوصل لاتكتب تحتها أو فوقها شىء، لاحظ:

همزة وصل	همزة قطع
امتحان	إنجاز
انتهى	أنهى
اكتب	أكتب
اسم	أسر

وهكذا لاتكتب شيئا تحت ألف الوصل، ولافوقها، فى حين تكتـب همـزة تحـت ألـف القطـع إذا كـانت مكسـورة وفـوق الألـف إذا كـانت مضمومـة أومفتوحة، كما سبق.

فإذا اختلط عليك الأمـر فـلا تكتـب الهمـزة، لاتحـت ولافـوق، لأن عـدم كتابتها فى همزة القطع فى مثل:

(اشـجان-اشـجار-اسـراع) هـو خطـأ هنـا، إلا أنـه أقـل خطـورة مـن كتابـة الهمـزة تحـت أو فـوق ألـف الوصـل، لاحـظ الفـرق بيـن الخطأين:

إمتحان	الـزام
إســـم	اسماء
أكتـب	انـت

انظر، الأمثلة على اليمين خطأ، والصح أن تكتب:(امتحان-اسم-اكتـب) والأمثلة الأخرى خطأ أيضا، والصح أن تكتب:(إلزام-أسـماء-أنـت) إنـه خطـأ أيضا، ولكنه أقل خطورة من الخطأ السـابق، ولـذا عزيـزى القـارئ إذا اختلـط الأمر عليك، ولم تعرف هل هى ألف وصل أوقطـع، فـلا تكتـب الهمـزة، فـإن عدم كتابتها مع ألف القطع أقل خطورة من كتابتها عند الوصل، وهكذا.

٢- آخر الكلمة: الهمزة آخر الكلمة لاتكون إلا للقطع، وتكتب على ألـف إذا سبقت بفتح، مثل:(مبتدأ -قرأ-حمأ-املأ)فإن سبقت بكسـر كتبـت علـى طرف الياء، مثل:(قارئ-قرئ -سيِّئ-نيِّئ) فـإن سبقت بضمـة كتبـت الهمزة على واو:(تهيؤ-تكافؤ-لؤلؤ) الا إذا ترتـب عليـه توالـى واويـن، مثل: (تبوُء) فإنها تكتـب علـى السـطر، كمـا تـرى، وليـس علـى واو، انظر:

تبوؤ[1] ←———— تبوء

---

(١) هذا السهم معناه (يصبح).

فإن كان قبلها حركة طويلة (حرف مد) فتحة طويلة، أوكسرة طويلة، أوضمة طويلة توضع الهمزة على السطر، مثل:

سماء - مضىء - مقروء

دعاء - هنىء - مملوء

نداء - نبىء - وضوء

الداء - قمىء - سوء

وإذا كان ما قبلها ساكن، تكتب على السطر أيضا:

شىء - ملء

فىء - دفء

طىء - قرء

مع ملاحظة مايلى:

أ- إذا جاءت الهمزة على السطر، وقبلها ألف-مثل:(نساء-نداء) فإن ألف المنصوب لاتأتى بعدها)، كما يقولون (لاتأتى الهمزة على السطر فى نهاية الكلمة بين حارسين) لاحظ:

خطـــأ	صواب
سمعت نداءا	سمعت نداءً
دعوت دعاءا	دعوت دعاءً
كتبت إهداءا	كتبت إهداء

في حين تبقى الألف في مثل:

توضيت وضـــوءا

رأيت الكوب مملوءا

لقد عمل ســـــوءا

ب- فإذا كان ساكن آخر غير الألف، مثل الواو أو الراء بقيت الألـف، كمـا هى، مثل:

ضـــوْءا

بـــرْءا

وهنا ننظر إلى ماقبل الهمزة التى على السطر، إن كان ممن يوصل بما بعده، أم لا ؟

فإن كان ممن لايوصل بمابعده، وهو: (الدال-الذال-الراء-الزاى-الواو)(١) فإن الألف تبقى كما هى:

جـزْءا

بـرْءا

ضوْءا

بـذْءا

---

(١) إضافة إلى الألف، وقد سبق الحديث عنها فى مثل:(شتاءً-نساء-سماءً) حيث ذكرنـا أن الألف لاتكتب هنا، حيث لانقول:(شتاءا-نساءا-سماءا) لأن الهمزة آخـر السطر لاتقع بين ألفين، أوحارسين، كما ذكر.

لكن الحرف الذى قبل الهمزة إن كان ممايوصل بمابعده، وهو باقى الحروف عدا:(د - ذ - ر - ز - و - ا) التى توصل بماقبلها فقط، دون مابعدها، إن كان من هذا النوع الذى يوصل بمابعده وقبله، وهى:(ب - ت - ث - ج - ح - خ - س - ش - ص - ض - ط - ظ - ع - غ - ف - ك - ل - م - ن - هـ - ى) إذا جاء واحد مماسبق قبل الهمزة على السطر آخر الكلمة رسمت الهمزة على نبرة، وصلا للحروف بمابعدها، قارن بين المجموعتين:

ضوءا - شيئا

جزءا - دفئا

ردءا - ملئا

لقد كتبت الهمزة على نبرة هنا وليس على السطر، لأن الحروف التى قبل الهمزة هنا(ى - ف - ل) مما يمكن وصل الهمزة به، على عكس الأمثلة الأخرى، التى بقيت الهمزة فيها على السطر.

٣- وسط الكلمة: إذا وقعت الهمزة وسط الكلمة فإنها تخضع لعدة قواعد أهمها:

أ- قاعدة أقوى الحركتين: تتلخص هذه القاعدة فى أن الهمزة إذا وقعت بين حركة وسكون حكمنا للحركة، أية حركة، فإن وقعت بين حركتين، حكمنا لأقواهما بالترتيب التالى:

الكسرة [١] فالضم فالفتح، فإن كانت الحركة الأقوى أوالأولى كسرة كانت الهمزة على ياء (نبرة) مثل:(بئر-قائل- نهنئكم) فإن كانت فتحة كتبت على ألف، مثل:(فأل-سأل) وإن كانت ضمة رسمت الهمزة على الواو، مثل:(سؤل-مؤجل-مؤخرة) وهكذا.

ومعظم الهمزات وسط الكلمة تخضع لهذه القاعدة المهمة، قاعدة أقوى الحركتين، أوأولى الحركتين، إلا إذا تعارضت مع قواعد أخرى فحجبتها، مثل:

ب- كراهة توالى الواوين أوالألفين: إذا ترتب على تطبيق قاعدة أولى الحركتين توالى الحرفين، الواو أوالألف، فإن العربية تتحاشى هذا التوالى = بالطرق الآتية:

توالى الألفين: إذا وقعت الهمزة بين فتح وألف مد، أوبين سكون وألف مد(فتحة-طويلة) رسمت الهمزة على ألف، هكذا:

سـأال

قـرأان

تأاسـوا

---

(١) المقصود بالكسر هنا الكسرة القصيرة والطويلة (ياء المد) وكذا الضم= الضمة القصيرة والطويلة، والفتح = القصيرة والطويلة (ألف المد) كما أن المراد بالحركة هنا الحركة فى النطق، لا فى الكتابة.

إن الهمزة هنا -حسب أولى الحركتين- تكتب على ألف، ولكن يأتي بعدها ألف أخرى، هى ألف المد، ولاتحب العربية توالى الألفين هنا، ولذا تختصر الصورة السابقة، بالشكل الاتى:

سأال ←——— سآل - أا ←——— آ

قرأان ←——— تآسوا - أا ←——— آ

تأاسوا ←——— تآسوا - أا ←——— آ

ومن الجدير ذكره أن هذه الحالة (أا←آ) لا تختص بالهمزة وسط الكلمة فقط، بل نجدها حالة الهمزة أول الكلمة، مثل:

أاخر ←——— آخر

أانس ←——— آنس

أا ←——— آ

وكذا نهاية الكلمة، كما فى:

ملأا ←——— ملآ

يقرأان ←——— يقرآن

دفأان ←——— دفآن

أا ←——— آ

وكثيرا ما يخطئ الناس فى كتابة هذه المدة (~)هنا، فيكتبون بدلا منها همزة فقط، هكذا.

أمال بدلا من آمال	أخر بدلا من آخر
قرأن بدلا من قرآن	ملأ بدلا من ملآ

وهذا خطأ ينبغى الالتفات إليه، إذ يبدو أن بعض الكاتبين قد نسى تماما تماما هذه المدة (~) ويكتب بدلا منها، وفى جميع الأحوال همزة فقط، كما سبق وهو خطأ صراح.

ومن ناحية أخرى فإن من الممكن أن نجد صورة مختلفة عماسبق أوالعكس منها، فلا نجد همزة بعدها ألف مد-كما سبق-أى الصورة: (أامال-آمال) بل نجد المد بعده همزة هكذا:

قرأاة ←——— قراءة أا ←——— اء

مضاأة ←——— مضاءة أا ←——— اء

ساأل ←——— ساءل أا ←——— اء

لاحظ الفرق بين الصورتين، الأولى أا←آ، أما الصورة الثانية فهى على العكس، أى اأ←اء، حيث تأتى الهمزة بعد ألف المد فى المثال الأخير، فى حين تأتى الهمزة فى المثال الأول قبل ألف المد، وهكذا.

توالى الواوين: إذا وقعت الهمزة بين ضم وفتح أوبين ضم وسكون رسمت على الواو، إلا إذا ترتب عليه توالى واوين، كما رأينا فى: (تبوؤ←تبوء) فلما ترتب على كَتْب الهمزة على واو توالى الواوين، أسقطنا الواو الثانية لترسم مفردة، أو لتقع على السطر، دون حامل لها، أو كرسى.

والهمزة وسط الكلمة إذا ترتب على رسمها على واو توالى الأمثال، كما فى الأمثلة الآتية، سقطت الهمزة على السطر واستغنى عن الواو الثانية، هكذا:

نبوؤة ← نبوءة

مملوؤة ← مملوءة

لن يسوؤك ← لن يسوءك

فإذا جاءت الهمزة بعدها واو، أى على العكس مماسبق فإن الواو الأولى تحذف، وترسم الهمزة على السطر أيضا، مثل:

رؤوف ← رءوف

دؤوب ← دءوب

يقرؤون ← يقرءون

لاحظ أن الحرف الذى وقع قبل الهمزة هو من النوع الذى لا يوصل بما بعده، ولذا تركت الهمزة لتقع على السطر، أما لو كان الحرف قبل الهمزة مما يوصل بما بعده كانت الهمزة على نبرة، مثل:

شؤون ← شئون

مسؤول ← مسئول

فؤوس ← فئوس

جـ- وصل الحروف: تعتمد العربية على مبدأ مهم هنا فى رسم الهمزة وهى وصل الحروف ماأمكن، ولذا فإن الحروف العربية جميعا ممايوصل

بماقبلة ومابعده، اللهم إلا هذى الحروف القليلة التى توصل بماقبلها فقط، دون مابعدها وهى:(د-ذ-ر-ز-و-ا) كما سبق، وماعداها يوصل بماقبلة ومابعده،ولذا رأينا مثل:(سوءا-ردءا-جزءا) تبقى كما هى، دون وصل الهمزة بماقبلها، فى حين توصل فى الأمثلة الاتية:

شىءا ←——— شيئا

فىءا ←——— فيئا

دفءا ←——— دفئا

وكذلك الحال إذا التقت الواوان فى مثل:

كؤوس ←——— كئوس

سؤول ←——— سئول

مؤونة ←——— مئونة

كانت على السطر* كما ترى -لأن الكاف والسين والميم من الحروف التى توصل بمابعدها، ولذا اتصلت حروف الكلمة كما هو واضح فى الأمثلة، على عكس الأمثلة الأخرى:(رؤوم ←——— رءوم) فإن الراء-وغيرها- مما لا يوصل بما بعده -وهى الهمزة هنا- ولذا لم توصل الراء بالهمزة، لترسم على نبرة، كما فى (شئون) مثلا.

وهكذا نخلص إلى أن رسم همزة القطع وسط الكلمة تعتمد على مبدأ مهم هو قانون أقوى الحركتين، فإذا ترتب على هذا القانون توالى الواوين أو الألفين، استغنينا عن إحدى الواوين وأحد الألفين -كما مر- فإذا أمكن وصل الهمزة بماقبلها وصلت، وعليه فالهمزة وسط الكلمة تعتمد فى كتابتها على:

أقوى الحركتين.

كراهة توالى الواوين والألفين.

وصل الحروف ما أمكـــــن.

وعلى هذى القواعد السابقة تعتمد معظم الكلمات بما يقـارب ٩٥٪ منهـا فيما قمنا به من إحصاءات، فى حين وجدنا كلمـات قليلـة، حوالـى ٥٪ معتمـدا على مبدأين مهمين، هما:

١- إن اللغة العربية تعامل الواو والياء، إذا سكنا وفتح ما قبلهما معاملة واو المد وياء المد، ولذا تعتبر الواو فى مثل:(توءم) كأنها ضمـة[1] طويلـة، وكذلك الياء فى مثل (هيئة) ومن هنا وقعت الهمزة بين ياء ساكنة لينـة، وهو ما اعتبر هنا مساويا لياء المد، وقعت الهمزة بين كسر وفتح، ولـذا كتبت على نبرة، أوعلى ياء.

٢- وفى بعض الأحيان تعـامل الهمـزة كأنهـا آخـر الكلمـة، مـع أنهـا وسـط الكلمة فى الظاهر، مثل:(مرجـأون-يقـرأون) فعلـى حسـب قـاعدة أقـوى الحركتين، وقعت الهمـزة فـى المثـالين بيـن فتـح وضـم، ولـذا كـان مـن المفترض أن نكتب على واو:

مرجؤون ← مرجئون

يقرؤون ← يقرءون

---

(١) ومن هنا وقعت الهمزة بين ضم وفتح فكانت (تؤؤم) وعندمـا التقت واوان سقطت الثانية لتقع الهمزة على السطر هكذا (توءم).

ولكن الهمزة فى المثالين وأضرابهما عوملت كأنها آخر الكلمة، دون اعتداد -من أى نوع- بالواو والنون وبما أن الحركة التى سبقت الهمزة هنا هى الفتحة فإنها تكتب على ألف، تماما تماما كما يحدث فى المفرد:

مرجأ - مرجأون

يقـرأ - يقرأون

ولكن لماذا عوملت الهمزة معاملتها آخر الكلمة؟

السبب -فيما نرى- التفرقة بين صيغتين:

اسم الفاعل مرجئون بكسر الجيم

اسم المفعول مرجأون بفتح الجيم

والتفرقة أيضا بين:

الفعل المبنى للمعلوم يقرأون

الفعل المبنى للمجهول يقرئون

وهكذا يجب الالتفات إلى كتابة همزة القطع، لا سيما وسط الكلمة، وإذا لم يكن الكاتب واثقا من صحة مايكتب فليبحث عن كلمة أخرى، ليس بها همزة ، فإن هذا الهروب أفضل وأكرم للكاتب من أن يقع فى الخطأ هنا.

بقى خطآن تجدر الإشارة إليهما:

١- التفرقة بين تاء التأنيث المفتوحة، وبين تاء التأنيث المربوطة، هذا الخطأ الذى يقع فيه بعض أبنائنا الذين لايلحظون أن تاء التأنيث المفتوحة هى ساكنة قبلها فتح ولا تدخل إلا الفعل الماضى فقط، فى حين تدخل التاء المربوطة الأسماء، ولاتكون ساكنة، بل هى دائما محل إعراب، على عكس المفتوحة المبنية على السكون، لاحظ الفرق بين أمثلة كل:

كتبَتْ – كتَبَةٌ

استفادتْ – استفادةٌ

نجحتْ – ناجحةٌ

٢- وكذلك بدأ بعض الكاتبين يخلط بين تاء التأنيث المربوطة، والتى تنطق هاء عند الوقف، وتاء فى الوصل، وبين هاء الضمير.

فى وقت سابق كان الكاتب ينسى أن تاء التأنيث المربوطة برغم أنها تنطبق هاء عند الوقف، إلا أننا نكتب النقطتين فى الحالتين، الوقف والوصل كلاهما: هذه مدرسة ممتازة

هى كلية محترمة

ولكن بعض الكاتبين يخدعه النطق هنا، فيضع النقطتين فى الوصل فقط، دون الوقف، هكذا:

هى ابنة طيبه

ذات سيرة حسنه

ولكن الخطأ الأخطر بشاعة وقبحا هو وضع نقطتين على الهاء، أوعلى الضمير هكذا: هذة بنت ممتـــازه

هذا كتـــابة وقلمة

سيبوية عالم جليل

ومن الممكن لكاتب أن ينسى النقطتين على التاء المربوطة لكنه لاينسى بحال أن يضع نقطتين على الهاء، والسبب فى هذا عدم الفهم، وعدم الرغبة فى التفكير، والكتابة بطريقة آلية، بدون اكتراث أو اهتمام.

ونرى الان أن يفكر الكاتب قليلا حين يضع النقطتين، فهل تحت النقطتين هاء ضمير، أو غير ضمير، أم هاء تأنيث؟ فإن شك لم يضع شيئا، لأن عدم وضع نقطتى تاء التأنيث، وإن كان خطأ بلا ريب أو شك إلا أنه أقل خطورة من وضع النقطتين فى غير مكانهما، لاحظ الفرق بين الخطأين:

سيبوية - الجامعه والصح أن نكتب: سيبويه - مسطرته

مسطرتة - مسطره الجامعة - مسطرة

وعلى الله قصد لسبيل، وصلى الله على محمد وعلى آله الطاهرين المطهرين.

والسلام عليكم ورحمة الله

أحمد مصطفى أبو الخير

ههيا شرقية

٤/١٠/١٩٩٦م.

الفهـرس

